



مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

الجزء الثالث من رباعية
دموع التراب
بسام السلطان
عرس الطنطورية

البداية الأولى

-1-

نهضت مذعورة ورمت الغطاء عن جسدها البض الأبيض الجميل الممتلئ بالأنوثة والشهوة.
صرخت بوجهها الذي رأته عبر المرآة مظلمًا بفعل ظلام غرفة نومها، تتعود النوم على العتمة بلا إضاءة حتى لو كانت هذه الإضاءة خفيفة.
صرخت بعينيها الزرقاوتين:
(سأرمي له بكل دفاتري).
صمتت قليلا بعد أن شربت قطرات الماء المتبقية في الكأس الذي لازم سريرها سنوات طويلة، لا تستطيع النوم بعيدا عن كأس الماء.
عادت للصرخ مرة أخرى بوجهها:
(لن اترك عندي أي شئ يذكرني به).
وصرخت:
(سأرمي في وجهه كل دفاتري ومذكراتي ورسائله لي ورسائلي له حتى تلك الرسائل التي لم اكتبها).
أدارت جسدها الملفوف بقميص نوم قرمزي من الحرير شفاف يظهر جسدا لامعا من شدة البياض. أمسكت بكأس الماء تريد أن تشرب وجدته فارغا، غضبت لكنها وجدت الماء في الإبريق القريب جدا من رأسها. ملأت الكأس وشربت.
عادت إلى المرأة، صرخت بأعلى صوتها:
(لماذا انتظر إلى الغد، سأرميها اليوم، سأجهزها له، وغدا اذهب إلى مكتبه في الجريدة وارميها بوجهه، لا أريد محبته، لا أريد محبة ممزوجة بالشفقة يقتلني بها).

شربت مرة أخرى من كأس الماء الذي كاد ماؤه ينفد، وخففت دموعها النازفة من العيون الزرق إلى الوجنتين المحمرتين من حدة صوتها:
(سأعترف له بكل المذكرات التي لم اكتبها).

**

-2-

النهاية الأولى

ملأت سيرة زواجها المخيم وأزفته
كل المخيم تحدث عنها.
بائعة الخبيزة، التي تجلس في زاوية على مدخل المخيم، الزاوية التي تستقر في أول
حواري المخيم، في مفترق الطرق الذي يؤدي إلى السوق.
قالت للعجوز من الحارة الثانية وهي تلف لها ضمة خبيزة بلدية في ورقة جريدة:
- الطنطورية بدها تتجوز.
فتحت العجوز عينيها الجالستين فوق مجموعة من التجاعيد القديمة جدا وقالت:
الطنطورية ما غيرها.. الشحادة.
آه.

تساءلت العجوز:

ومن هو المتعوس المنحوس اللي قبل بيها؟
ناولت العجوز لفافة الجريدة وفيها ضمة الخبيزة البلدية وقالت:
يقولون من المخيم من حارة ثانية و صحفي.
صحفي وشو بشتغل الصحفي، تلاقيه مثلها شحاد.
صحفي يعني بكتب بالجرايد
أخرجت العجوز من ثوبها كيس من القماش وحلت من حوله قطعة من المطاط، ربطته
بها بإحكام وأخرجت قطعة نقدية من المعدن وناولتها لبائعة الخبيزة وقالت:
- الجريدة اللي بتلغي فيها الخبيزة
- آه

- وشو لقي بيها الصحفي، ما لاقى غيرها.المخيم مليون بنات.
أصلحت بائعة الخبيزة مندليها وأظهرت غرتها وقالت وهي تبتسم:
- زلم هالايام بطلوا يشوفوا بنات الناس .
- بنات الناس لأولاد الناس
نهضت العجوز بتناقل وقالت:
- دنيا فيها بلاوي..عش طويلا ترى كثيرا. رجاء الطنطورية بدها تتجوز وصحفي..
ظلت العجوز تحدث نفسها حتى اختفت في صخب أزقة المخيم .
ظهرت العجوز في السوق وهي ما تزال تردد:
- دنيا فيها العجائب.
ومن شدة وقع الخبر عليها اصطدمت بعربة بائع الذره الذي سألها:
- بتحكي مع حالك يا حجة.
رفعت رأسها ا لذي كاد يسقط فوق وعاء الذره المليء بالماء المغلي والذرة المستوية
وقالت:
- من غرائب الدنيا يا ولدي بطل الواحد يشوف قدامه.

- خير إن شاء الله شو فيه يا حجة؟
- الطنطورية بدھا تتجوز
- فتح عينيه على وسعهما حتى كادتا تنفجران وقال:
- الطنطورية! الشحادة ما غيرها.
- الطنطورية ما غيرها
- دنيا فيها العجايب، ومين هو المنعمي على قلبه.
- بقولوا صحفي ، صحفي مهم.
- صحفي من المخيم
- اه
- والله اني اعرفته.
- مين هو
- ما بسويها الا حسام القرد.
- مين حسام القرد؟
- حسام القرد ابن حارتنا مهو صحفي .
- تركته العجوز يصيح : ذرايه..عرنوس..الصحفي بجوز شحادة. الصحفي بجوز شحادة.
- سكت قليلا ثم قال في سره:
- أكيد في أشي.. أكيد عمل فيها أشي وأنجر يتجوزها..الله يستر علينا.. الله يستر
- على اخواتنا الله يستر على حريمنا.بس البنت من يوم يومها بتستاهل.

**

- 3

بداية ثانية

أنا طنطورية، وكل طنطوري لا بد مقتول.

لم يكن أحد يعبا بي.

كنت كرهت الحياة، حياة بلا أب أولا ثم بلا أم ثانيا، يقولون اليتيم يتيم ألام.

أعيش وحيدة مع نفسي .

تمنيت أن يكون لي أخ أو أخت.

قتل ابي مع من قتلوا في إحدى المذابح الكثيرة ، قتل اغلب أقاربي في مذبحه

الطنطورية. وبقيت أنا وأمي، سكنا المخيم على حافة الموت، نعيش من فتاة الحياة،

كنت مع أمي في الثامنة أو التاسعة من عمري، لم نكن نستطيع العيش بدون عمل،

أمي في البداية عملت في الخياطة، كانت تخط ما بلي من ملابس الجيران .

لم تكن أمي تؤمن بشيء في الدنيا ولا حتى في الآخرة، كانت تقول إن الكل نسينا

حتى الله.

علمتني الحقد وعدم الثقة بأي شيء.

لكن أمي لم تستطع مواصلة عملها في الخياطة ولا حتى في أي شيء، ظلت

تدخن وتشرب القهوة وتلعن الدنيا وما فيها وتملا قلبي بالحقد والحزن حتى رمتني في

أحضان الشارع، ليصبح مكاني اليومي، فتاة، لا بل طفلة في الثامنة أو التاسعة تترك

في زاوية من زوايا المخيم أولا ثم في زاوية ثابتة في العاصمة.

يترك منظرها وهي تأخذ مكانها اليومي في أحضان الشارع إحساسا بأسى عميقا ،

لا مكان لي سوى الشوارع العريضة التي تؤويني نهارا وجزءا من الليل وأحيانا كل

الليل.

تعلمت من أمي أن أكون عنيفة ومتمردة، كانت عيون أمي مليئة بالذكاء والفتنة وتحمل فيهما حقدًا كثيرًا ، كل الحقد الذي على وجه الأرض كانت أمي تحمله في عينيها وصدرها.

بعد موت أمي المفاجئ أو غير المفاجئ ، كانت أمي مريضة بأشياء لا نقوى أن نسأل الطبيب عنها، كل أمراض الدنيا كانت في صدر أمي.

بعد مرضها كان من الضروري أن انظم إلى مجموعة المتسولين اللصوص حتى احتمى بهم وأتمكن من تدبير أمور طعامي ومبיתי في أمان، بعد موتها أصبحت شرسة ، شرسة حد القتل إذا لزم الأمر، لكن ذلك كاد أن يكون على حساب أشياء أخرى، فقد كان علي القبول بنمط عيشهم.

لكن حقد أمي وخوفها الذي أورتني إياه كان يرافقني. وعندما أراد أكبرنا سنا وأشدنا عضلات، أراد أن يمارس معي الجنس، كنت وقتها في الخامسة عشر ، وأنا أشبه أمي بجسدي ، حاول معي أكثر من مرة ، أراد أن نختلي معا وحدنا وقال لي إنني ساكون مميزة من بين المتسولين لكنني عرفت من أمي إن مثل هذا الخطأ يعني موتي ويعني أنى سأصبح أداة متعة بيد الجميع.

هددته بالقتل إن حاول أن يمسنني، لكنه أصر. في ذات مساء ربيعي دخلت إلى أمي ابكي، كانت تخطط لأحد النساء ثوبا، فزعت أمي عندما رأته ابكي. صرخت :

- ما بك؟

لم استطع الإجابة فقد كنت الهث بقوة وقسوة.

احتضنتني أمي إلى صدرها وهي قليلا ما تفعلها وأحضرت المرأة كوبا من الماء وسقتني وهي تردد آيات قرآنية وسور قصيرة من القرآن لم تحفظ أمي منها شيئا.

هدأت المرأة من روعي وسألتني بهدوء :

من أخافك يا حبيبتي.. لا تخافي أنت في بيتكم.

- بائع الذرة كان يريد خطفي.

صرخت أمي كالمجنونة :

- يريد خطفك.. الكلب.

خرجت مسرعة وراءه تحمل بيدها قطعة من الحديد تريد قتله.

وعندما عادت صرخت بوجهي وقالت لي:

- كفى بكاء. لا تبكي.. افهمي يا رجاء.. أنت طنطورية ويجب أن تكوني قوية ..افهمي ما

أقوله. الأقوى هو الابقى وهو الذي يعيش في هذا الزمن الخرب زمن القتل والدمار

والحرب، إذا ضربك احد فاضربه، إذا تحرش بك شخص ما لا تهربي، اضربه بأي شيء

تجدينه بين يديك. اقتلي كل من يحاول المس بك ، اقتلي نفسك إذا قبلت يوما الذل

والمهانة ، اكرهي قدر ما تستطيعين ولا تحبي أحدا فالحب ذل.

هذا الكلام علق في ذهني وفي رأسي الصغير لسنوات حتى هذه اللحظة التي اقدم

فيها على قتل نفسي التي تحاول إن تذلني مع حسام القرد.

وفي ذات ليلة كنت فيه أحاول الوصول إلى المخيم لم أجد في تلك الليلة المواصلات ،

وكنت في مثل هذه الحال الجأ إلى المسجد واستلقي فيه حتى الفجر، دخلت

المسجد واذ به يلحق بي، امسكني من رأسي ووضعه بين يديه واقترب بشفتيه من

شفتي يريد تقبيلي ، حاولت أن ابتعد عنه ، لكنه مازال ممسكا برأسي بين يديه بقوة

، كنت داخل المسجد ، ترك إحدى يديه وامسكني من صدري النافر، وقتها شعرت

بالموت من شدة الألم فضربته بين فخذه فخر على الأرض مغمى عليه وهربت ،

ركضت كثيرا ، كل الشوارع كانت تركض معي، واصلت الهرب في شوارع المدينة الكبيرة، واصلت الهرب باتجاه المخيم حتى وصلته وكأني أموت أو اخرج من موت ألان، وتأكدت بعدها أني مقتولة. لا بد أن اقتل صباح الغد، فانا طنطورية وكل طنطوري لا بد مقتول.

**

4 -

الموت يلاحقنا في كل مكان، نحن دموع التراب تبكيها الأرض وهي غير قادرة على حمايتنا. يقولون الوطن غالي ولا يعوضه أي شيء لكننا لا وطن لنا ولا تراب نحن فقط دموع تسيل باستمرار من عيون أصيبت بالعمى من كثرة البكاء، فعويلنا كثير ، كبير جدا لان مصابنا جلل.
كانت أمي تقول:

إن وطننا كبير، كبير جدا .

أخذت مكاني صباحا أمام المسجد غير مدركة لما يدور حولي من خطر أو متجاهلة لما قد يحصل لي، أو إنني نسيت ما صنعته بأكبرنا سنا وأقوانا جسدا ليلة الأمس داخل هذا المسجد.

جلست أتسول المارة وأدعو لكل من يعطيني ولو فلسا، وأكيل لمن يتجاهل سؤالي الكثير من الشتائم، افتح فمي ولا أغلقه، لم أكن أخشى شيئا لأنني متأكدة انه لن يؤذيني احد بسبب شتيمة، كنت سليطة اللسان كأمي، ولاني احترفت التسول منذ الصغر فقد أصبحت مدركة متى اطلب من الناس ومتى اشتمهم.
عند أذان الظهر كنت منشغلة بجمع القروش القليلة التي يرمي بها إلي المصلون رفعت رأسي وإذ به يقف أمامي ، رأيت بعيونه شرا.
بادرته بابتسامة ولما لم يبادلني بمثلها قلت له بكل صلابة:
- إذا فعلت معي شيئا سأصرخ بأعلى صوتي.

لم يجيني ، تقدم اكثر حتى كاد يلامس بفخذه فمي وقال لي:
- هذه المرة سأنسى الأمر.. مرة ثانية سأقتلك أنت لا تريدين الخير لنفسك.
تشجعت اكثر، رأيت حقد أمي يتململ في صدري، قلت له:
- لا عليك، أنا أريد الخير للجميع

**

5 -

بين كل صلاة وصلاة يتوقف عمل الطنطورية أو تسولها أمام المسجد، تحتل الزاوية الخارجية لباب المسجد منذ سنتين، لا تدري لماذا اختاروا لها هذا المكان، ربما كونها أصغرهم سنا وطبيعة المصلين يشفقون على الأطفال. وربما لأنها جميلة، كانت طفلة جميلة، اجمل من سيدات المدينة.

في ذات المرات رآته، كان يدلي رأسه الصغير فوق حذاء رجل كبير، اخرج من صندوقه علبة ألوان سوداء، ومسح بها حذاء الرجل، مسحه بقوة وتركيز، جلست تراقبه، بعد إن دهن الحذاء بالطلاء الأسود مسحه بفرشاة متوسطة الحجم ثم دعه بقطعة قماش ، ظل يدعه حتى أصبح الحذاء يلمع، كان يعمل على الحذاء كفنانون يرسم لوحه لكنها داكنة سوداء.

أصوات السيارات تخترق رأسها الطفل، كانت تجلس على الرصيف المقابل تراقب البويجي بولع دون أن يعرف إنها تراقبه، وتراقب اللافتات المعلقة على واجهات المحلات والإعلانات المنقوشة على أعمدة الشارع بخطوط جميلة تدعو المارة للشراء، لم تكن

تعرف القراءة كثيرا ، كانت تركت المدرسة في وقت مبكر، حلمت بحقيبتها المدرسية وبأقلامها وكتبها، حلمت بطابور المدرسة الصباحي ومربولها الأزرق، كانت تراقب طالبات مدرسة الوكالة كل صباح وهن متوجهات للمدرسة ، كانت تتعمد التأخير حتى ترى طالبات المدرسة. لكنه كان حلما سرعان ما يتبخر عندما يمر من أمامها رجل تتوقع منه الصدقة.

اقتربت من الفتى صاحب الصندوق الأسود وكان أنهى تلميع حذاء، حاول تجاهلها لكنه لم يجد بدا من الاستجابة لتوسلات عينيها.

- الله يرزقك، الله يخلي إخوانك.

ابتسم البويجي الذي يقارنها بالعمر، لكنه تبدو علي وجهه علامات الرجولة المبكرة ، ابتسم ابتسامة طويلة وأعطاهها قرشا واحدا، مازالت تحتفظ به حتى هذه اللحظات، كان قرشا مميزا، أخفته عن الجميع.

بعد أن دست القرش في جيب سرية عملتها لتخفي فيه بعض النقود عن المجموعة التي تعمل معها وابتعدت قليلا عنه وهو مازال يبحث عن حذاء جديد يعوض فيه ما أعطاه إياه.

انهمك البويجي في تلميع حذاء آخر بينما كانت الطنطورية تعترض طريق أحد المارة، ألحت عليه كثيرا، حاول التخلص منها، لكنها أصرت ، حاول الابتعاد مرة أخرى فتبعته وألحت كثير مما جعله يدفعها بعيدا عنه، كادت أن تسقط على الأرض لولا أنها أمسكت بعمود كهرباء كان قربها.

ابتعد الرجل عنها وفتحت فمها تكيل له السباب والشتائم ، كانت تلعن الوقت الذي جعلها تمد يدها لمثل هذا الرجل وتلعن الذين كانوا السبب في امتهان هذه المهنة المذلة.

وقفت الطنطورية أمام محل للحلي الذهبية، وضعت يديها على الزجاج الذي كان يلمع أكثر من القطع الذهبية، تفحصت الواجهة التي أنيرت بالأضواء الساطعة ، تمنى إحدى القطع الذهبية بيدها، كانت أمها تعشق الذهب الذي ما لبسته إلا الوقت الذي كانت فيه عروس، ثم باعه زوجها ليعتاشوا منه.

تمنى إحدى القلائد أو المحابس، لكنها لم يدم حلمها فقد طردها الرجل من داخل المحل:

- ابتعدي عن الزجاج.

لكنها لم تتبعد، فخرج إليها وطردها مرة أخرى لان يديها وسختا الزجاج، لكنها لم تستمع لكلام الرجل بل قالت له:

- الله يرزقك أعطيني مما أعطاك الله.

أراد الرجل أن يتخلص منها ويبعدها عن واجهة المحل فقال لها:

- لم نستفتح اليوم..عودي غدا.

- اقبل بأي شئ .. القليل الله يرزقك.

- قلت لك لم يرزقني الله بعد.

- اقبل ذهب، إذا ما معك قروش.

عجز عن إبعادها عن واجهة المحل فاخرج من جيبه قطعة معدنية ورمها أمامها وقال وهو يبتسم:

- هذا أفضل لك من الذهب.

ودخل محله فرفعت القطعة المعدنية وبدلا من أن تدعو له دعت عليه.

انتصف النهار فشعرت بالجوع، توجهت إلى احد المطاعم الشعبية، استقبلتها رائحة الفلافل، تقدمت من المطعم، وكان على الرصيف رجل يقلي الفلافل، نظرت إليه دون كلام، لم يعرها أي انتباه، جلست قرب قدميه تحت الوعاء المليء بالزيت المغلي. قال لها:

- اذهبي سينسكب الزيت المغلي عليك .
لم تتحرك.

- ماذا تريدین؟

نظرت إلى حبات الفلافل وهو يخرجها من الزيت المغلي، وضع لها خمس حبات فلافل في ورقة من كتاب القراءة للصف السادس الابتدائي كان مكتوب فيه قصيدة (بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان) قال لها:

- هيا ابتعدي.

تركت عامل المطعم وانصرفت تجوب الشوارع تتناول لفافة الخبز مع الفلافل ، تسير بانتظار أن يرفع المؤذن آذان العصر لتعود لتمارس الشحاذة في مكانها ولا تنسى أن تمر في طريقها على ماسح الأحذية ، تنظر إليه يرسم لوحاته على أحذية المارة ، تراقبه دون أن يراها أو يشعر بها.

كانت تتمنى لو كان زعيمهم لمكنته من نفسها دون عناء وتعيب منه.

تسير في الشوارع تبحث عن كل شيء، وعن لا شيء ، تتذكر جدتها القابعة وحدها في البيت تنتظر حفيدتها الطنطورية الصغيرة على أحر من الجمر، دائما تحذرهما جدتها من الرجال، وتوصيها بالحذر.

ما أن دخلت البيت في المخيم حتى بادرتها جدتها بالسؤال:

- لماذا تأخرت يا ابنتي؟

- انتظرت صلاة المغرب.

- يكفي يا ابنتي تعب.

- يجب أن نعمل يا جدتي.

كانت تقول لجدتها:

- لا تخافي أنا طنطورية فإما العذاب او الموت غير ذلك لن يحصل لي شيئا.. لقد

زرعت أمي بصدري حقد الدنيا فلا تخافي يا جدتي.

يتكون بيتهم المسقوف من ألواح الزينكو من غرفتين واحده تنام فيها مع جدتها والغرفة الثانية تستخدم كمطبخ ومكان الاستحمام ومكان لخلوتها مع نفسها .

دخلت إلى مكان خلوتها المتواضعة وأخرجت ملابسها التي لبستها آخر مرة

ذهبت فيها إلى المدرسة وفتحت الكتب الأخيرة في حياتها المدرسية وبكت، بكت كثيرا حتى ابتلت أوراق الكتاب القديم من دموعها.

أخرجت دفترها وكتبت فيه:

(أمي.. خالفت وصيتك لي وأحببت.. نعم انا الان اشعر بالعشق، والفتى الذي اعشقه اظنه مثلنا مشرد بلا بيت وبلا وطن.. امي احببت فتى يقاريني بالعمر يعمل في مسح الاحذية وانا اشعر اني اعشقه كثيرا لكنه يا امي لا يبالي بي.. اليوم يا امي ذهبت اليه بحجة الشحذة فاعطاني قرشا وابتسم لي. ساحتفظ بالقرش الى الابد.

كنت احفظ وصيتك لي يا امي وتعليماتك ان الطنطورية لا تحب ويجب ان لا تسلم قلبها لاحد. لكني احبته وليس ذنبي يا امي انك لم تحبي ابي الذي تزوجك بغير رضاك،

لكن ابي كان حنوناً ولم يكن يعرف كما رويتي لي انك لم تكوني تريدينه وانك كنت تحبين شخصا اخر، لكنني احببت فلماذا تحرميني من هذه النعمة، انا حب ماسح الاحذية ولو طلب مني ان اسلمه نفسي وجسدي لسلمته يا امي). وكتبت بعد اشهر:

(امي اكاد اموت كرها لنفسي، جاءني اليوم ماسح الاحذية برفقة فتاة رأيت حبها في عينيه، انه يعشقها، جاءني مع بنت المقبرة تلك الفتاة الضائعة التي كانت تسكن المقبرة، كان يحبها يا امي كنت ارى حبها في عينه لكنها لم تكن تحبه انا اعرف ذلك وأنا احبه يا امي كثيرا، احبه يا امي. بل احبته قبل ان تأتي تلك الفتاة التي اصبحت صديقتي، هي مثلنا يا امي مشردة بلا وطن او ماوى).

**

6

**

عودة النهاية

تحركت في غرفة نومها، حاولت ان تشرب من كأس الماء، كان فارغا، لعنت نفسها ولعنت الماء.

عادت للصراخ مرة اخرى بعد ان احضرت الماء ، كانما اصيبت بالجنون:
(لماذا لم استجب لامي، كانت تنصحنني دائما ان ابتعد عن الرجال، ابتعد عن الحب، وكنت مطيعة لها منذ ان حاول بائع الذرة إغراءي وانا طفلة، دائما كنت حذرة من الرجال، لكن ماسح الاحذية الذي احبته طفلا صغير يحمل اللون الاسود فوق وجنتيه وفي اطراف اصابعه، حسام قرد المخيم احبته وكنت اتمنى ان اسلمه نفسي وروحي وجسدي منذ ان كنا طفلين، لو كنت حسيفة لكنت تركته يوم قال لي:
- انت متسولة وانا..

- انت صحفي ، ومن العار ان تتزوج متسولة بنت مخيم.

- انا ابن مخيم ايضا.

- اذن ما العائق امام زواجنا؟

- لا ادري، مع اني كما تعلمين لا انظر لهذه الامور.. لامور الطبقات والفروقات الاجتماعية ولا اخذ بها مأخذ الجد لكنني اتوقف عن التفكير كلما فكرت بك زوجة.
- ليست القضية طبقات اجتماعية وفتاة مخيم او متسولة وصحفي، القضية هي بنت المقبرة.

- وما دخل بنت المقبرة بزواجنا، وما الذي اتى بسيرتها الان بعد هذه السنين الطويلة.

- انت تحبها، وغير قادر على نسيانها رغم السنوات الكثيرة التي أبعدتك عنها ورغم غيابها الطويل عنك.

**

7

تحركت نحو نافذة غرفة نومها، وتابعت حزمة الضوء اللامعة التي اخترقت وحدتها من خلال زجاج نافذتها، كان الضوء منبعث من نور الشارع.

(ترى هل اكون قريبة من الموت، واذا لم يكن الموت قريب مني فكيف اكن طنطورية، وكل طنطوري لا بد مقتول).

كان الليل اقرب الاوقات للطنطورية منذ ان ماتت جدتها، كانت ساعات النوم والليل معبدها المقدس الذي تختلي فيه مع نفس.

كان القدر ابتسم لها مرة واحدة عندما استطاعت خلال سنتين ان تنجح في التوجيهي بناء على طلب البويجي ، اسرعت اليه لتزف له خبر نجاحها:

(لقد نجحت في التوجيهي، اصبحت الان مؤهلة لان اكون زوجة صالحة لك.)
لم يتكلم ، لم يبتسم لها، كان يطن انه وضع امامها معجزة لن تستطيع عبورها
والتخلص من شرطها القاسي، لكنها استطاعت ان تمحو كل شروطه التعجيزية.
- الم تفرح؟!
- بلى، انا سعيد جدا لكنني..

- لكن ماذا، لم تظن اني استطيع تخطي شروطك

- لا ابدأ، أنت انسانة رائعة وتستحقين الاحترام.

- احتراممي ان تعزميني على الغداء هذا اليوم.

- نعم تستحقين ذلك، تستحقين ذلك.

بعد طعام الغداء قال:

- اراك غدا، او بعد غد.

قال اراك غدا، او بعد غد.

ومضت الايام ولم اره.

هاتفته في الصحيفة لكنه دائما غير موجود، ورحت ابحت عنه في كل مكان، كنت ازور المقبرة لاعتقادي انه يذهب الى هناك بحثا عنها، عن بنت المقبرة، جلست طويلا في الزاوية التي كان يعمل فيها طفلا ماسحا للأحذية لكنه لم يأت.

منذ تلك اللحظة وانا افكر اني مقتولة ، فانا طنطورية ولا بد من قتلي.

عدت الى التفكير بالانتحار، اريد ان اسرع دورة الحياة ليتني فعلتها عندما قال لي:

- لكنك متسولة وانا..

في تلك اللحظة لازمني شعور بالموت وانكسار شعرت به عندما ماتت امي، وقتها

بكي، لكنني لم افهم لم بكيت؟ اكنت بكيت لان الميت امي ويجب ان ابكي على

امي؟ اكنت اخشى استغلال الاخرين لي بعد موت امي؟ لكنني عرفت فيما بعد اني

بكي لانني لم اكن انا الميت.

**

8

على غير عادتي هبطت من المخيم مبكرة. مبكرة جدا.

كان السائق يشفق على طفولتي، كان يعاملني بلطف ويرفض ان يتقاضى منى اجرة

الركوب من والى المخيم.

عندما رأني قال لي:

-اليوم مبكرة يا طنطورية، هل يوجد موسم؟

- لا ، لكنني على موعد.

ضحك السائق وقال:

- موعد، موعد غرام يا طنطورية.

- سكت وتذكرت امي وتحذيرها لي.

قلت له: مازلت صغيرة على الغرام، لدي موعد مع الشحدة.

ضحك السائق وقدم لي قطعة خبز مدهونة بزيت الزيتون كان يأكل منها، تناولتها

وخبأتها في جيبتي، لا اريد ان افسد بهذه اللقافة افطار الغرام مع ماسح الاحذية.

- كنا اتفقنا ان نتناول افطارنا معا

قال لي عندما ودعني في اول الحارة:

- غدا نتناول افطارنا معا على درجات المدرج الروماني.
- انا سعيدة جدا.
- بعد ان امسح عددا من الاحذية احضر اليك ونذهب معا.
لم اكن استطيع الانتظار حتى يمسح احذيته الصباحية ، لم استطع النوم تلك الليلة،
وقررت ان اكون قبله على تلك الزاوية التي يجلس فيها.
مررنا بطريقنا من المخيم الى وسط البلد او قاع المدينة كما يحلو للبعض تسميتها،
كان جو العاصمة ينبء عن شئ غير عادي، لم اكنرت لاي شئ فانا متعودة على كل
شئ حتى على رمي الرصاص وبارعة بالهروب منه في الشوارع التي تخلو من المارين
في منتصف النهار عندما يبدأ اطلاق النار .
لم يستطع الباص مواصلة طريقه داخل شوارع المدينة، كانت الشوارع والازقة مزدحمة
بحملة الياقات، مليئة بطلاب المدارس وطلبة الجامعة.
اللجنة على حظي المنحوس المتعوس.
لم يكن هذا الامر جديدا علي ، فكم من مرة جرت المظاهرات وكنت اسير بوسطها
اتسول، لكن الجديد في هذه المرة انها جاءت وقت مواعي الغرامي مع حبيبي ماسح
الاحذية.
ظلت المظاهرات حتى الظهر، وبقيت انتظر في مكان لكنه لم يأت الى زاويته ، كثيرة
كانت الاحذية التي مرت عليه وهو غائب.
بكيت كثير، خسرت قروشا بابتعادي عن المسجد اكثر من الدموع.
بعد قليل جاء، جاء يحمل فوق كتفه صندوقه، جاء من غير اعتذار ، كانت اساريه
مبتهجة وكأنه قادم من موعد مع حبيته، نسي مواعي، جلس قربي ووضع صندوقه
امامه وقال:
- عندما رأيت المظاهرة نسيت هواجسي الصغيرة، وانزعت وسطها اهتف بكل شئ،
هم يهتفون بسقوط اسرائيل وامريكا وانجلترا وانا اهتف معهم.
كنت وسط الهدير المزلزل، جرفنا كل ما في طريقنا، مررنا بطريقنا بالاسواق اغلق
اصحاب المحلات التجارية محلاتهم ، بعضهم شارك معنا والبعض الاخر اغلقها خوفا من
السرقة.
كانت الساحة تعج بالالاف، كان بعضهم محمولا على الاكتاف ويهتف في الناس فتردد
الجمع هتافاته وترتج الجموع، كنت اقف فوق صندوقي عندما صاح احدهم:
(انه يوم الارض ويجب ان تحرر الارض).
كان الرجل يصرخ في الجموع وكان العرق يزخ من الجباه وتبلل الملابس به، وكانت
الاجساد متراسة، وكان الرجل يصيح:
(فاليسقط وعد بلفور)
وكنت اصيح معهم:
(فاليسقط واحد من فوق)
وكان الرجل يصيح:
(بالديمقراطية والرشاش نحرر فلسطين. لا بالسكون والمفاوضات).
كانت اشجار السرو والصنوبر المحيطة بالساحة مليئة بالمتسلقين .
وفي لحظة مفاجأة وجدت نفسي وحيدا اجلس على صندوقي، كانت الجموع
المتجمهرة قد ماجت في كل الاتجاهات وتراكم طلبة المدارس في الشوارع والازقة
عندما لمحوا رجال الامن الذين تقدموا لتفريق المتظاهرين، وفجأة اختفى صوت الرجل
ولم يعد احد يخاطب محررا العواصم العربية.

كانت الشوارع قد افرغت من المارة وتذكرت اني لم امسح أي حذاء في هذا النهار
وتذكرت انني يجب ان امسح وارسم البسمة على الاحذية من اجل ان ارسم البسمة
على افواه تنتظرني في المخيم.
تمنيت لو اني شاركت الجموع مظاهرتهم علني اسقط ارضا وتدوسني الارجل، لقد
تذكر ماسح الاحذية احذيته ولم يتذكرني ، الويل لي من نفسي ومن قلبي، لا بد ان
يكون قلبي قاتلي في يوم من الايام الويل لي من قلبي.
**

9

نهاية

سهرت تلك الليلة طويلا مع امي، كانت جدتي تطلب من امي التوقف عن الدخان
وتخفيف شرب القهوة.
لم تكن امي وجدتي في يوم من الايام على وفاق.
كانت امي تقول ان جدتي والتي هي امها ظلمتها بزواجها من ابي.
في تلك الليلة ، شكت امي من الم في رأسها وطلبت مني ان اغلي لها ركوة قهوة،
تشرب امي قهوتها سادة، بدون سكر.
اعترضت جدتي وقالت لها:
- انت مريضة ولا تتوقفين عن تناول هذه السموم.
لاول مرة منذ ان وعيت على الخلافات المتكررة بين امي وجدتي ارى امي تخاطبها
بهدوء .
قالت لها:
- ارجوك، يا امي العمر واحد والموت واحد.
- لكنك تقتلين نفسك يا ابنتي.
- لقد قتلت منذ ان تزوجت، قتلتني..
كانت امي تعاتب جدتي باستمرار وتحملها تعاستها:
(انتم قتلتموني، انت وابي رحمه الله الذي لم يكن يرفض لك طلبا، عندما جاء اقاربي
لخطبتي قال لك ابي ان سميرة متفوقة في دراستها ولا اريد تزويجها لعل الله يعوضني
بالابناء الذين قتلوا في مذبحة الطنطورة.
وانت قلت له يومها:
الزواج خير من الدراسة، الا ترى اننا محاطون بالخطر والاعداء من كل مكان؟
حاول ابي ان يقنعك بالعدول عن زواجي لكنك رفضتي واصريتني على تنفيذ ما برأسك،
زوجتني رغم اني كنت طفلة صغيرة، ورغم دموعي وتوسلي لكما اني اريد ان اكمل
مدرستي الا انك رفضت حتى النظر لدموعي، لقد قتلتني في تلك اللحظة.
كانت جدتي تسمح لها بالصراخ عليها عسى ان يكفر ذلك عنها شيئا من الذنب الذي
تحس انها ارتكبهت باغصابها على الزواج من ابي.
هذه المرة لم تصرخ امي بوجه جدتي بل انها عندما نهضت جدتي للنوم قبلت امي
رأسها وقالت لها:
- سامحيني يا امي، ارجوك سامحيني.
نزلت دمعة من عيون جدتي وقالت لها:
- ليسامحنا الله جميعا.

- ظلمتني مرة واحدة وظلمك لي كان خوفا علي ، لكنني ظلمتك كثيرا..ارجوك يا امي سامحيني.

**

10

استيقظت صباحا كعادتي انهض مبكرة من اجل ان لا يفوتني باص الصباح الهابط من المخيم الى قاع المدينة ، كان صباحا عاديا ككل الصباحات التي تتكرر علي مع طلوع كل شمس دون ان يكون هذا اليوم مميزا بشئ عن غيره، صباح لا لون له ولا طعم ولا رائحة، فانا استيقظ صباحا فاجد جدتي مستيقظة وحدها بينما تكون امي ما تزال مستغرقة في نومها.

غسلت وجهي ، و اردت الخروج واذ بجدتي تمسكني من كتفي وتضميني لصدرها، وبكت ، عرفت من دموع جدتي ان هناك امرا خطيرا.
قالت لي جدتي:

- اختارت امك الرحيل هذا الصباح من غير ان تزعجنا.
لم افهم قول جدتي .

قلت لها:

- الى اين رحلت أمي؟

واستفاقت براكين نفسي التي كانت غافية في أعماق بحري المظلم، كانت نفسي تكمن في أعماق الظلمات فاستفاقت صباح ذاك اليوم.

وحركت جدتي المياه الآسنة ، رجتها رجاً.

وامتلأت الدار بسكان المخيم ، الرجال تنادوا لحفر القبر والنساء تجمعن يندبن أمواتهن، موت احد أبناء المخيم يعني فتح الجروح ، كلها ، فما بالك إذا كان الميت طنطوري.

وجاء حسيام ، كان بين الرجال يحمل صندوقه على كتفه، بكيت بشدة عندما رأيته عله يأتي إلي ويحتظني كما فعلت نساء المخيم ورجاله الكبار في السن، لكنه لم يفعل.

**

لماذا اختارت امي الرحيل بهدوء وهي التي لم تكن لحظة واحدة تركز فيها الى الهدوء، حياتها كانت صاخبة حتى بعد ان هدها المرض.

لماذا لم تصرخ عندما داهمها ملك الموت؟ لم تصرخ او تضطرب، بل رحلت بدون اسف على هذه الحياة.

كانت امي تكره كل شئ ، لكنها كانت بسيطة جدا، متفانية متواضعة في احلامها، هذا ان كان لها احلام.

بكيت جدا، لكنني لم اعرف السبب الذي جعلني ابكي.

جدتي بكت بقلبهها، زاد شعورها بالذنب.

وتألما اكثر لاننا لم نستطع ان نعرضها على طبيب، كانت حالتها واضحة، كنا نراها تدنو من الموت وبسرعة.

**

لم تكن امي تثق بشئ ، كانت تشك بكل شيء، ولو انها كانت رجل لشكت في بنوتي لها.

كانت تصر على ان جميع الناس اشتركوا في مذبحه الطنطورة، وكل الناس اشتركوا في زواجها من ابي وقتلها، لان كان بسبب المذبحه.

حتى انها كذبت الرئيس جمال عبد الناصر عندما اعلن استقالته بعد حرب الستة

او حرب حزيران.

كنا وقتها نجلس حول الراديو عندما طل صوت عبد الناصر مسهبها في اسباب الهزيمة بصوته الهادئ ، ثم تقدم لحكومته بالاستقالة على اساس انه مسؤولا عن تلك الهزيمة كقائد للجبهة المصرية.
وقتها صرخت امي:

- كاذب.. جمال عبد الناصر عميل وكاذب.

وعندما خرجت الجماهير الى الشوارع لثنيه عن الاستقالة قالت امي:
- هذه لعبة عبد الناصر، هو مسؤول عن الهزيمة واراد ان يكسب ود الجماهير الغاضبة ويخفف الصدمة فاعلن عن استقالته، انه كاذب، كلهم كذابون.
**

لم تكن امي تكره ابي، لكنها لم تكن تحبه، كانت تعتقد انه كان مشتركا في تغير مسار حياتها دون ان يقصد.
دائما كان يحاول ان يجعلها سعيدة ويلبي لها كل رغباتها، ويرفض ان يغضبها ولو على حساب نفسه.

وعندما دفعته امه للزواج من امرأة اخرى لان امي لم تلد له ولدا ذكرا رفض طلبها. اخبرتني جدتي ان ابي كان مظلوما مع ابنتها، لم تكن تعامله كزوج حتى في اصغر الامور وتفهمها.

وعندما توفي ابي بكت امي قليلا، قالت جدتي:

- لم تبك امك على ابيك كزوج، بكته لانه طنطوري.

وقالت جدتي:

- قلب ابنتي قاس، حتى عندما مات زوجها.

**

-12-

نظرت في المرأة، كان هناك امرأة تبادلها النظرات، فتاة تعرفها منذ ان كانت طفلة، هي ليست سميرة صبحي ، هي طنطورية لكنها ليست امها، لكنها يبدو على وجهها الانهالك والتعب .

رأتها تبتسم ابتسامة ساخرة، تسخر منها، لكنها فتاة عاجزة مهجورة بشكل يثير الشفقة والقتل معا.

شعرت ان تلك الفتاة تدعوها للانتحار.

(انت طنطورية ومقتولة، لا بد من ان تموتي قتلا فلماذا تؤجلين موتك وتنتظرين من يقتلك.

انت الان تسجلين ذكرياتك فاختميها بالموت، موتك انت، لا تترددي).

اخذت رجاء تحديق في تلك الفتاة، نظرت اليها وجدتها جميلة جدا رغم الشحوب.

تعرفها منذ ان كانت تتسول امام المسجد وتشارك في المظاهرات لا حبا بتلك

المظاهرات اللعينة كما كانت تسميها، حتى انها لم تكن تعرف لماذا هي، انما طمعا

بمحفظة من صاحبها وهو يقفز بين المشاركين في المظاهرة او ساعة يد تنط من

معصم يد تلوح غضبا، او أي شيء يسقط أثناء مطاردة رجال الأمن للمتظاهرين.

اقتربت من المرأة ، رأت امامها امرأة مليئة الجسد بيضاء البشرة شهية، عيون

هذه المرأة التي تحديق بها في المرأة زرقاء وجميلة جدا.

كانت اشعلت ضوء غرفة نومها لتتاكد من هذه المرأة التي تسخر منها وتدعوها

للانتحار.

قالت لها:

عادت الى سريرها بعد ان شعرت بانقباض اصاب يدها والم لا إرادي شعرت به ينتشر في كل اجزاء جسدها.
انها تدرك الان بوضوح ، ولو بعد فوات الاوان ان ما فعله حاس بها لم يعد ذا اهمية تذكر، كانت متعلقة به وتغفر له كل اخطاءه، كانت تشتاق له وهي تعلم انه في احضان امرأة اخرى.

افلت منها انين، حاولت قتله قبل ان يخرج من فمها، هي تعرف ان زواجها كان لمصلحة.

كان يريد الزواج من امرأة لا تمنعه من البحث عن بنت المقبرة ، امرأة بلا احساس تبيعه نفسها دون ثمن.

وهي تشعر بالخسارة الكبيرة من صفقتها مع حسام ، الصفقة غير المعلنة، وهي الان بحاجة الى العزيمة للتجاوز هذه النكسة بسلام، حتى بعد انفصالهما الا انها تريد ان تشعر انها تقوم بعمل ذي قيمة بعد ان كانت مجرد متاع تبحث عن الحب.
**

-15-

زواج

تجمع المئات في حف زواجنا، جاء كل من سكن المخيم، من حارتنا ومن الحارات الأخرى، اغلق تجار المخيم محلاتهم التجارية في سوق الرئيسي، شعرت وقتها اننا في مظاهرة وخفت ان يتركني عريسي للمشاركة في ال مظاهرات وخفت اكثر ان يعتقد رجال الامن انها مظاهرة حقيقية ولا يفرقون بينها وبين العرس فيستعملون القوة والعنف والهراوات والبساطير لتفريقها وربما يطلقون قنابل مسيلة للدموع وربما يزداد الامر سخونة فيصطدم المتظاهرون والذين هم في الاصل جاءوا لعرس الطنطورية برجال الامن فيطلقون الرصاص وكنت اخشى ان تقتل رصاصة عريسي بدلا مني انا الطنطورية.

لم تأت هذه الحشود لزفافنا حبا بنا او تلبية لدعوتنا، فلم نكن دوننا اكثر من خمسين شخصا هم من نعرف ويهمنا حضورهم.

كل الذين جاءوا للتأكد من خبر زواج الطنطورية.

كانوا يريدون التأكد من صحة الخبر ، فالطنطوري يجب ان يقتل لا ان يتزوج.

رايت في عيونهم الحيرة والسخرية، ورايت في عيون صبايا المخيم الحقد

والحسد والا كيف تتزوج الطنطورية رجاء الشحادة بنت سميرة صبحي خياطة المخيم من صحفي، وصحفي ووسيم.
**

اتكأ بائع الذرة على عربته اليدويه ذات الثلاثة دواليب وكان البخار يتصاعد من وعاء

الالمنيوم الذي يشتعل تحته بريموس بنار هادئة، نظر الى رجاء نظرة تحسر وقال:

لا بد ان يكون في امر هذا الزواج شيء، الطنطورية تتزوج، ومن، صحفي.

ناول احد الاطفال كوز الذرة ووضع القرش في جيب مريوله المتسخ من مسح يديه به كلما باع احدا الذرة وصاح:

ذراية ، عرنوس، السخن الذراية...

صمت قليلا ونظر العروسين وقال لنفسه:

لو انها جاءتني كنت قبلتها مهما كان الذي جرى لها فانا احبها.انها لذيذة ، كنت اشتهيها وهي طفلة.

قرب منه احد الحضور من تجار المخيم وقال له:

اليس الامر عجيبا؟
كل العجب يا صديقي في هذا الزواج.
انها مسكينة وبييمة.
هل تعتقد انه زواج شفقة؟
ربما، لكنها جميلة جدا واي رجل يتمناها زوجة له.
ربما، ربما.
**

اشعر اني في جنازة وليس في عرس، حسام غير سعيد رغم الابتسامة التي يحاول
اظهارها للناس، ارى بعيونه الندم واشعر قلبه يلعن ذاك اليوم الذي وافق فيه على
الزواج مني.
ففي تلك الليلة التي كنت اظنها ليلة العمر واعتبرها هو في اعماق نفسه ليلة
جنازية.

وبعد ان ودعنا المدعون بدعواتهم وتركنا غير المدعوين بهرج ومرج وساخر وناقم،
بعد ان تناثروا وابتلعتهم ازقة المخيم ودخلوا بيوتهم فرادى.
لما انصرفوا دخل امامي الى غرفة النوم، توقعته يمسك بيدي او يحملني ، لكنه دخل
قبلي وجلس في منتصف السرير.
وقفت على بعد امتار، فتاة حالمة بليلة دخلة كغيرها من الفتيات ويملاء الخوف
الممزوج باللذة والحب قلبها.
اردت ان اطفيء الضوء ، خرجت منه كلمة كانها صرخة خائف:
(اتركه)

لم يتفوه بغير هذه الكلمة، كنت اتوقعه شاعرا، لكنه ابتلع لسانه في تلك الليلة.
جلست على حافة السرير بعيدة عنه ، شعر بي ، نظر الى بشفقة، فاحبته، اقترب
مني ورفع رأسي فعبرتني رعشة.
اعتقدت وقتها انه يبحث عن الكلام الذي يقال في مثل هذا الموقف. اصابته
حيرة واصابتني لعنة.
مضى وقت غير قليل من الصمت، بعدها حاول كسر حاجز هذا الصمت الطويل الذي
اعلم مدى عشقه له، دنى مني حاول البحث عن كلمات يغير بها الكأبة لكن لسانه
امتنع عن الكلام المباح وخانه في الكلام غير المباح.
لم ادري الا والصباح يطل بشمسسه من بين الثقوب الصغيرة في ستائر غرفة
النوم، نهضت سعيدة على تلك الليلة التي لم يجد الصمت مكانا فيها بعد منتصف الليل
فخرج خاسرا حاسرا.
وبدا العالم غارقا في حب وسلام، وكان حسام الذي شاركني تلك الليلة قد غط
في نوم عميق.

كنت سعيدة وانا احمل ملابسني واضعها في الغسالة واطرب لصوتها الذي
اسعدني باعلانه نهاية عذرتي وبداية حياة جديدة.
**

-16-

مرأة

لم يقل لي مرة واحدة انه يحبني.
لم يخاطبني مرة واحدة بكلمة حبيبتني.

عادت الى مرأتها ، رات صوراً كثيرة تتراقص امامها، بعض هذه الصور يشبهها والبعض يشبه اناس تعرفهم في المخيم، بائع الذرة، جدتها، حسام، بنت المقبرة ، امها هي الوحيدة التي كانت غائبة عن المرأة.

اختارت من بين الموجودين في المرأة صورة حسام واقتربت منها وقالت له:
-انت السبب.

انت جعلتني أتسول طول حياتي.

انت متسولة منذ ان ولدتك امك.

انت علمتني التسول والذل.

انا علمتك الحب.

انت كنت تخدعني، لم تحبني يوماً، كنت تحب بنت المقبرة ونفسك فقط.

لكني احببتك.

مع اني نذرت لك حياتي ونفسي وقلبي الا انك استكثرت على كلمة (بحبك) مع انها

كلمة جميلة وخفيفة، لكنها كانت على قلبك كالصخرة ، ويأب لسانك ان ينطقها.

فجأة اختفت كل الصور التي كانت تسخر منها في مرأتها وتضحك عليها. وظل خيال

لانسان في عتمة المرأة ، في زاويتها البعيدة، كان ينظر اليها من بعيد ويبتسم ، لم

تكن ابتسامة الظل ساخرة، كانت بليئة بالشفقة والمحبة، هي ليست لحسام ولا لاي

انسان تعرفه.

تناولت كأس الماء، شربت كل ما فيه، وملاءته مرة اخرى، خلعت رובהا عن جسدها

فظهرت مفاتن الجسد الجميل، فاخفت ال صورة، بحثت عنها في كل زوايا المرأة

، لكنها لم تجدها عادت ولبست الروب واخفت جسدها فظهرت الصورة بشكل اوضح،

حاول الاقتراب منها، مد اليها يدا لا تصل.

تكلم الظل وقال:

-لا تهجري ماضيك.

قالت له:

من انت؟

انا من لم تره وتعرفينه.

وكيف اعرفك وانا لم ارك.

كنت معك باستمرار، كنت اجلس قريبك امام المسجد وانت تتسولين وكنت ابكي لاني

تركتك للتسول وللعذاب وكنت معك عندما قبلك حسام اول مرة فغضضت بصري بالم،

وكنت معك وانت تفرضين نفسك على زوجك ماسح الاحذية وتستجدين منه الحب،

ولم استطع منعك ، رافقتك في كل اوقاتك وفي كل الاماكن التي كنت فيها.

من انت؟ هل انت قريني؟

لا، انا لست قرينك انا روح انسان تحبك.

لكني بلا ماض

بماذا تفكرين يا ابنتي؟

الموت.

يا ابنتي..

قاطعته:

-اتعلم انها المرة الاولى والوحيدة التي اسمع فيها هذه الكلمة.

- اعلم.

- انت تعلم عني كل شيء

- هذا لانني ابوك.
- رفض
- نعم ، انا روح ابيك الذي لم تره..لماذا تريدان الموت ؟
- لأنني طنطورية. انا طنطورية يا ابي وكل طنطوري لا بد مقتول.
- والحب؟!
- (المحبة والموت وحدهما يغيران كل شيء)* (جبران خليل جبران)واذا لم احصل على الحب فأني اختار الموت.
- الحياة ليست زوج، الحياة تستحق ان نعيشها.
- الحب اذا كان حقيقا فانه يغير نفوس الناس وكذلك الموت يا ابي فانه يغير النفوس والاجساد.
فجأة ظهرت صورة حسام واختفى ظل والدها، فصرخت:
عد الي يا ابي.

سمعت صوت حسام يضحك بصوت عال.
انت الموت ولست الحب، حتى ابي حرمتني منه، انت الموت، وابي المحبة.
امسكت بيدها كأس كأس الماء وضربتها بالمرأة فكسرتها.
وجلست تبكي بصوت مسموع وعالي وتنادي على ابيها.
ابي، اين انت ، اعلم انك هنا، اعلم ان روحك وخيالك معي، ارجوك يا ابي عد الي بخيالك واعدك بانني سوف اعدل عن الموت.
نظرت الى المرأة عساها ان ترى خيال والدها لكنها كانت تشظت الى قطع صغيرة وتناثرت فوق السجاد الاخضر الذي فرشت به غرفة نومها.
رمت بجسدها على سريرها الذي تعود منها الاستسلام لجسد حسام دون اية مشاعر، جلست وكان يقربها ابريق الماء الملبيء غلافه الخارجي باشكال مزخرفة وروسو اوراق الياسمين ويقربه عدد كبير من الادوية الفاسدة والمنتھية صلاحيتها، نظرت اليها، وبحركة متناقلة لكنها قاطعة وبدون تردد مدت اليها يدها.

**

-17-

أخذت العناصر المتقاتلة مواقعها في كل الاتجاهات، جنوباً وغرباً وشمالاً. يقتتل الجميع دون معرفة الأسباب، كلا الطرفين يظن انه على صواب بينما الرصاص يكون أكثر صواباً وصدقا من الكتب والتصريحات الصحفية والإعلامية.
يصبح التسول خلال لعلعة الرصاص صعب، بل قد يكون مستحيلا بسبب انتشار الرصاص بشكل طائش وأعمى هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يوجد في شوارع عمان من يسير فيها فكيف من يمنحني قرشا أو نصف قرش.
الليل يتسكع في الشوارع الفارغة، مطر شديد والسيول تدخل البيوت دون استئذان والرصاص يجوب الشوارع، والأحياء المقفرة، الخالية. احترقت لكثرة المسلحين فيها. هي بلا أضواء . أضواءها خافتة فقيرة كالسكان الذين يسكنون هذه الأحياء. الحياة في الأحياء الفقيرة البعيدة عن الأضواء كهل، كشيخ يلقي على كتفه زوادته. لا يدري إلى أين يتجه يحجب الليل والغيوم العابرة عنه وجهة الطريق التي يريد أن يسلكها، وزخات من المطر تلامس ارض عمان فتخرج رائحة لذيذة من تزاوج المطر مع ذرات التراب،

وزخات من الرصاص تخرج رائحة الجثث...سؤال ظل يطرحه الجميع إلى متى؟ لمصلحة من هذا الاقتتال وهذه الدماء؟ وإلى أين يسير الجميع؟.

حرائق، وأدخنة تتصاعد من كل مكان. نيران عمياء تحرق الأخضر واليابس تلتقي مع بعضها. شقت طريقها في الشوارع متجهة تبحث عن الموت تطل من النوافذ والأبواب... صراخ ووعويل وبكاء. الكل يبكي النساء والأطفال حتى الرجال يكون من قلوبهم، يجرحون أقدامهم.

تحترق ساعات الصباح، ويحترق معها البلد وتطول، وحينما يشقّ الضوء الفضاء المجاور لشوارع عمان، كان الرصاص يلعلع وسيارات الإسعاف تصرخ بحدة، ويمتد نعيها على اتساع الأفق، في كل المدن والقرى والمخيمات.

كان الوقت عند الغروب، لم أجد وسيلة مواصلات تنقلني إلى المخيم، القتال على أشده والشوارع فارغة إلا من المسلحين. كنت معتادة على مثل هذه الامور، ابحت عن أي مكان التجيء إليه وابتيت حتى الصباح، واحيانا كثيرة كنت ابنت ليلا في المسجد.

سمعنا صرخة عالية، كنت قد التجأت إلى بيت درج لبنانية شبه مهجورة، صرخة حملتها موجة هواء حزينة إلى السماء. طرقت أذني ثم انقطعت. كنت الم اطرافي خوفا تحت السلم، قلبي يقفز كأنما اتساقط عن الدرج، عيوني معلقة بمدخل البناية، شعرت ان الطوابق مرصوفة بالمقاتلين، وعلى جانبي الشارع المروع تصطف السيارات الخائفة!. روائح كريهة تفوح من البناية، منبعثة من كل مكان في الشارع وفي البناية ومني. رائحة الخوف والموت تملآن المكان. وبدأ الليل يحبل بمواليد جديدة. هدوء لدقائق ربما يتجدد وربما يصمت حتى الصباح.

رأيت أمي، أمي سميرة صبحي تركض على شاطيء المتوسط، تراقب إخوتها وهم يسبحون في البحر، تتمنى أن تسبح لكها بنت وعيب البنت تنزل البحر. قالت أمي:

- كنا ننزل البحر مرتين في الأسبوع وننزل مرة لحيفا.

ورأيت أمي وهي تلعب في سهول الطنطورة فرحة بجداولها الجميلة الطويلة التي كانت تعذب بها، كل الفلسطينيين يفتخرون بشعرهن الكنعاني. هذا ما قالت لي امي. عاد القتال شرساً. تدوي القذائف، يرتطم صداها بجدران الأبنية.

حاورت نفسي على اخرج من الخوف الذي زرعتني تحت مطلع الدرج برائحة كريهة : (هذه المنطقة أقرب ما تكون إلى الموت، استأجر عزرائيل بيتا فيها).

كانت اللحظات القليلة التي حدثت فيها نفسي ساخنة، تدفقت نيراناً وتدميراً. أيقظت الأموات من قبورهم. جعلت الأحياء يتمنون لو كانوا من سكان المقابر، كنت الضحية الأولى من دموع التراب الصمت يسود. السماء صامتة. الأرض حزينة، كنت وحيدة ، متعبة، بداءت عيوني تستسلم للنعاس وفجأة دخل ذاك الشاب الذي حاول أن يمارس معي الجنس ورفسته، جاء ومعه أصدقاءه. بدأوا يصطهجون " احضروا معهم مشروبهم وطعامهم وكونوا مائدة كبيرة وتجمعوا حولها، كانت مائدة عامرة بالمأكولات، والمشروبات وحشيش (الكيف).

قال لي :

- تبعتك حتى عرفت مكانك وألان جاء دوري.

- ماذا تريد؟

- أنت تعرفين ماذا أريد، كنت أريدك لي وحدي أما ألان فأنت لنا جميعاً.

حاول أن يجبرني على التعري ..
حياتي بئسة ملوثة، وحياتكم مملوءة بالخطايا والذنوب!!
صرخت، فضحك وقال:

-لن يسمعك احد.
كانت الدنيا مشغولة بالموت.
رجوته، رفض، واقتربوا مني، صرخت إلى الله.
واستجاب لي الله.
وكانوا خمسة مسلحين بينهم امرأتان، سمعوا صراخي وأنقذوني منهم، ضربوهم
بأعقاب البنادق، كنت ابكي وارتجف، حضنتني إحدى المسلحات. كان الخوف حجم
جسدي فأصبح كالطفل الرضيع.
كانوا يسكنون الطابق الثالث من البناية، أمسكت السيدة بيدي وصعدنا الدرج إلى
الشقة التي ينامون فيها.
قالت السيدة :

هذه الصغيرة إحدى مصائب الحروب.
إن الأطفال هم أول الضحايا في كل شيء
نقتلهم بجهلنا وغبائنا.
ما اكره الحروب وما أحسن الطفولة؟
إذا كانت طفولة بمعنى الكلمة وليست طفولة مشردة.
تناولنا العشاء معا، وفرشت لي احدهن بجانبها وعندما سألتني من أين قلت:
- اسكن المخيم، أنا طنطورية.
ضحكوا من جوابي أو من مصيري، فكل طنطوري لا بد مقتول.
حاولت النوم لكني لم استطع. سمعتهم يتحدثون عن المعارك اليومية.
قال احدهم: قتالنا كفر ودمار.
رد الآخر: إننا حتى لا نعرف لماذا نقتل.
- العدو هناك خلف النهر وليس في هذه الشوارع.
- إننا ننفذ الأوامر
- إنها أوامر حمقاء.
- يا ليت أسلحتنا توجهت لعدونا.
- أما سمعتم الشاعر

يقول:

(هذه كلها بلادي)

...وفيها..... كل شيء ...
إلا أنا وبلادي !!)

في الصباح كنت وحدي، لم اجد أي من المسلحين قربي، لكنها فجأة ظهرت من غرفة
مجاورة ، كانت جميلة، لملمت نفسي. أبدلت جلستي، كأنها حورية، لكنها مقاتلة
تقف خلف ساترا رملي. رفعت شعرها عن جبينها. استيقظت الأفكار في رأسي من
جديد.

قالت:المخيمات في الليل مهجورة ، منطقة خاوية. جثة هامة .أكلتها النيران. نهشتها
القذائف ومزقت جسدها. أسكتت كل نبضة في قلبها.
وتابعت كلامها:

دارت المعارك فيها... فوق سطوحها، وفي شوارعها. قتال بالسلاح الأبيض، ودماء حمراء، قانية. أمواج تلف الليالي الصاخبة بالموت.
قلت لها:

انت جميلة، جميلة جدا فلماذا تحملين السلاح وتقاتلين؟
ليس للجمال مكان في هذا الزمان.
صمت قليلا واشعلت سيجارتها وقالت:
أصبحت كالمجنونة في شوارع المدن والعواصم العربية، يلغني الغبار ورائحة البارود والقنص.. يحمل جسدي اوامر القادة و أنفاس المخمورين.
اين باقي المسلحين؟ ولماذا انت هنا وحدك؟
ذهبوا قبل طلوع الفجر وانا بقيت قربك احرسك حتى الصباح
لا تخافي علي فانا تعودت الخوف، أوجاعي تقترب من الموت. أنا مثلك شربت كأساً مرة وانا طفلة.

عند الصباح خرج الناس من الملاحيء باتجاه شوارع العاصمة. تركوا معاناتهم، وهمومهم تحت الأرض. فمنذ مدة طويلة وهم يبيتون في الملاحيء، ينتظرون الموت. وخرجت انا الى رزقي، توجهت الى المسجد الحسيني وانا اتأمل من الله ان جد ذاك الاحمق واستجاب الله لي مرة ثانية وجاء معذرا خائفا، معتقدا ان المسلحين يخصوني او انه اقتنع ان الله معي وانه يستجيب لي في كل الاوقات.
كانت شمس ايلول ترتفع. السماء صافية، خالية من الغيوم.
همس في اذني:
ارجوك سامحيني.
عبست في وجهه.
حنى رأسه على يدي يريد تقبيلها وقال:
سامحك كل ما تريدين فقط سامحيني.
**

-18-

أشعلت سيكارة واتكأت على شباك غرفة نومها المطلة على الشارع تاركة نظراتها في ظلمة ذاك الشارع الاخرس.

فتحت عينيها على وسعهما... قبل سنوات طويلة في المخيم كانت في اول ورد الصبايا، حدقت بقوة محاولة اختراق حجب الظلام إلى السماء لكنها لم تكن سوى كتلة سوداء ابتلعت الأفق وغيبت في عتمتها الكثير من النجوم.
عندما رأت قريب ام احمد يمر من تحت شباكها وبيتسم لها. لم تدري أي شيء كان في عينيه.

ليتني عرفت السر الذي رافق ابتسامته وكدت وقتها ان ادعوه للدخول لكنني عدلت عن ذلك عندما رأيت صورة حسام تقف بيننا.

مجت من السيارة بشراهة ثم نفثت الدخان مترافقا بتنهيذة طويلة لم تكن تدخن كثيرا، هو علمها عادة التدخين عندما اصطحبها ذات مساء الى احد المقاهي وطلب ارجيلتين واحده له والثانية لها. قالت له:

- لمن هذه الارقيلة؟

- انها لك.

- لكنني لا ادخلن.

- الارقيلة ليست تدخين.

كاد ان يقتلها الدخان الذي شفطته في اول نفس.
سعلت كثيرا لدرجة ان جميع من في المقهى التفتوا اليها.
لم يعد ثمة معنى لمزيد من الانتظار. اتخذت قراري وحزمت أمري ولن يثنيني عن هذا الامر أي شئ، يا الهي لم أعهد في نفسي مثل هذا القلق والاضطراب من قبل..
حتى في أسوأ الأزمات لم تفارقني ثقتي بنفسي. اعتدت منذ طفولتي مع امي
سميرة صبحي أن امضي قدماً في كل ما اريد، كنت قبل ان اعرف حسام مليئة
بالجسارة والعنفوان والإقدام! الآن صار علي أن اعد للعشرة قبل أن اقدم على أية
مجازفة.

لم اكن ضعيفة او خائفة يوم جاءتنا ام احمد تطلب منا ان نخبي احد الفدائيين المصاب
في ساقه برصاصة.

قالت ام احمد:

بييت ليلة واحدة.

خافت جدتي فقالت ام احمد:

انا مشكوك في امري.

قالت جدتي:

لكني امرأة عجوز وابنتي مريضة وهذه طفلة ونخشى ان..

قاطعتها بكل جسارة واقدام:

- احضريه يا ام احمد وسنعتني به.

قالت امي:

-احضريه يا ام احمد.

**

رمت بعقب سيجارتها من الشباك وخرجت من غرفة نومها وتسلمت مباشرة إلى غرفة
الجلوس راغبة في اعادة قليل من حياتها القاسية، أغلقت الباب وراءها كأنما هناك
من تخشى دخوله وراءها ويعكر عليها صفوها ولحظاتها الاخيرة أضاءت المصباح فشع
ضوءه كشمس حزينة، أغمضت عينيها الجميلتين واستندت بظهرها إلى الحائط شاعرة
بإعياء شديد.

سكنت عدة لحظات وقد شعرت ان هذا المكان ليس مكانها وداهما إحساس حاد

بالخواء أو شكت معه أن تموت في هذه الغرفة، لكنها اسرعت بالخروج من المكان .

نظرت إلى المرأة المتشظية بتثاقل محاذرة الارتطام بها او السير فوق زجاجها.

ووقفت على بعد خطوتين منها تحديق في ظلال صورتها المتكسرة والشاحبة التلوية

بين الكسور الكبيرة العالقة على صفحة المرأة والتي كانت صديقتها ايام طويلة وليال

خلت كانت تعيشها معها وحدهما.

(يجب ان اتخذ القرار النهائي.)

(لن اراجع عن قراري مهما كان الخوف المعشش في صدري، فانا طنطورية

والطنطوري لا يخاف هذه الامور.)

ضغطت على بطنها وزمت شفيتها بخوف، وشعرت بالمقبرة تقترب منها منهارات صورته

تتوضح في المرأة وقد زادها الخوف والقلق كآبة وتجهماً... لقد أدركت، منذ ان كانت

طفلة تعيش مع امرأتين احدهما مليئة بالطيبة وتسمى الجدة والاخرى تسمى

سميرة صبحي وتكره كل شئ، علمتها كيف تستوعب حقائق الحياة، وبكثير جداً من

المرارة، أنها ليست محبوبة تعرف ذلك منذ ان فرضت نفسها وحبها وجسدها على

حسام ولن تكون في يوم من الايام حبيبته مهما تحايلت وتجملت... ولعلها تعودت

على هذا الواقع وتقبلته برضى واستسلام لولا انها اصبحت تشعر بالمهانة من نفسها ومقارنتها دائماً بأمها سميرة صبحي، دائماً تجري مقارنة بينها وبين أمها التي تضج بالكره والحقد ولا تثق باحد، امها التي كانت مليئة بالفتنة والنضارة رغم تجاوزها منتصف العمر.

**

-19-

صمت ثقيل واسود، يطبق جو البيت كله وعلى غرفة الجلوس بشكل خاص ويزيد من كآبته دخان السجائر التي كانت لا تنطفئ، تطفيء سيجارتها ويشعل هو سيجارته حتى اصبح النور اصفر شاحب كانت تجلس قبالة لوحة بنت المقبرة والستارة المخملية نصف المرفوعة.

تأخذ اللوحة التي تمثل مشهداً ساحراً لفنأة ممزقة الملابس والنظرات كأنه آلهة اغريقيه وتحتضن احد القبور وتسكن المقبرة.

قالت له يوماً:
ستكون هذه اللوحة قاتلتي.
تبسم وحرك رأسه علي فهم امرا ما
قالت: قد تسقط فوق رأسي وتقتلني كما فعلت الكتب بالجاحظ.
شكلت اللوحة سوادا ينعكس عليها وظل وجهها كلما نظرت اليها يصاب بالإرهاق واصبح ساكناً في تعابيرها فتنة وإغراء.

تجلس على الكنبه بشكل متوتر بينما كان حسام نصف مضطجع على الكنبه، نظر الى ساقبيها المضغوطتين في بنطلون الجينز الأزرق حيث برز انسيابهما المتناسق والذي اثار في نفسه، رغم أنفه، نزوات قلقة حاول خنقها كان يفكر فيها كأنثى مشتتة جسد نموذجي للسريير كانت جامعة في ذاتها كل ما يتمنى الرجل. لكنه ابدأ لم يحبها!

تجرات وحدثه عن الطلاق ، ثم صارت تذكره بانها تشعر بانها متسولة لم يتغير عليها شيء:

(امام المسجد الحسيني تسول وفي فراشك تسول)
الطلاق كلمة جامدة، جرها ذلك من حيث لا تدري إلى الصرخ دون ان يكون هناك داعي للصرخ. لكنه هدها عندما قالت بعد ان اشعل سيجارته:
(كما تشائين غدا نفصل)
واضاف بعد ان مج من سيجارته بقسوة ونظر الى جسدها نظرة وداع:
(احترم رأيك)
نهض وسار في الغرفة مرتين ثم قال لها:
كان علينا فصل الحب عن الزواج .
انت لم تمارس حبا ولا زواجا
انت اصريت على الزواج منذ البداية
وانت اصريت على حب بنت المقبرة منذ البداية.
هي غير موجودة الا في اوهامك.
هي موجودة في عقلك وقلبك
انت مخطئة.
بل انت تزوجتني حتى تظل على حبك لها، اخترتني زوجة للفراش فقط.

انا لم اخترك.

انت محق، انا طنطورية وليس لي الا الموت
- انت تستحقين الحياة وبصراحة أكثر أنا لا أصلح لأن أكون زوجاً لك
تاهت نظراتها، دمعة حارة تحاول الهبوط بقوة وقسوة، لكنها تمنعها، حنت رأسها
مطرقة لثوان بدت زمناً طويلاً، حاولت اصطناع ابتساماة، شربت ثم نظرت إليه وبعد طول
تحديق قالت :

- انا مجنونة يا حسام، انت حكمت علي بالجنون والذل، كنت قاسيا ومازلت والذي
يحب لا يمكنه أن يكون قاسياً! تعلم سر تعلقي بك منذ ان كنا طفلين لكنك ترفضني
بقلبك، لم تنظر أمامك او خلفك مرة واحدة، أنت تعيش في وسط مقبرة.
وراء الغروب وشمس المساء التي تشق طريقها عبر المدرج الروماني، كانا طفلين
احدهما يحمل على كتفه صندوق البوية الاسود والآخرى تلف حول عنقها شال اسود
ينظران إلى تضاريس عمان من فوق المدرج، عمان تعيش فوق جبال عالية شامخة،
تنظر إليها من كل الارتفاعات، راقبا مياه السيل وكيف يصير لونها أبيض، فيتشكل
الزبد أثناء جريان النهر الصغير . بالقرب منهما شاب وفتاة كان الشاب ريفي والفتاة
عمانية.

ابتعد الشاب والفتاة عن الناس، جلسا على صخرة، تناول يدها وأطبق كفه
السميكة عليها وأخذ يفركها، حاولت أن تملص من هذه الحركة، لكنها لم تبذل جهداً،
تركت يدها المطوقة مرتاحة بين يديه، حاول ماسح الاحذية ان يقلد الشاب كانت
الشهوة تمشي في جسده الصغير وتصير غولاً مفترساً، بيده يلامس جسدها ويضغطه
ويدفعها إليه، يهمس في أذنها:

أريدك

قل احبك

لا فرق بينهما..

تسللت يده إلى صدرها الصغير، ملابسها تسمح لأنامله بالخريشة، صدرها يصرخ،
الشفتان الطفلتان تندان عن ابتساماة، القبل لا تؤدي إلا إلى مزيد من النشوة .
ابتعدت عنه عندما اقتربت سميرة صبحي منهما فجسداهما صارا لهيباً. عب كمية من
الهواء، شعر بالانتعاش، أمسكها من يدها ودعاها إلى العودة.
قالت له:

قل لي احبك.

قال لها:

- اريدك

مشت إلي جانبه، عرفت أن قوامها رشيق عندما امتدت يده تلامس خصرها، لكنها
حزنت، وتألمت وكم تمننت ان تسمعه يقول لها (احبك)

**

- 20 -

نظرت إليه وهما يجلسان في الجامعة تبحث عن ذاتها، عن حبها، تقرأ أفكاره، وعندما
لم تجد ما تبحث عنه أضافت :

- أحلم بك، انت تسكن ليلي ونهاري وأحلامي ارى نفسي ضائعة في عينيك، أحبتك
بكل جوانحي، تتركني لاوهامي وليلي الاسود الحزين، لا تتركني وحيدة، لا تدعني
أمت حسرة وكمداً .

- أنت تدفعيني للحب بجسدك وعينيك اللتين..

توقف عن الكلام فقالت له:

- اكمل ارجوك قل أي شيء، احكي أي شيء عن عيني حتى لو نعتهما بالعمى، قل أي شيء. كإنت بنت المرقبرة عشيقتك، وبعدة عشقت لواحة، احببت صنما عبدته طيلة ايام زواجنا، لوحة بنت المقبرة التي لها مذاق شهى ولالوانها انطلاق العاشقين، دائماً تدفعك إلى التغزل بها، انا اسمعك في منامك واحلامك تناجيها، حتى وانت تمارس معي الجنس فانك تمارسه مع جسد رجاء الطنطورية وروح بنت المقبرة وتتأمل جمالها الخلاب، والتفكير بها لا ينقطع من خيالك. أعلم أنك تحبها وغير قادر على اتخاذ قرار بنسيانها، أشفق عليك، وانت لن تبعد صورتها من بيتنا، ان احزن عليك قبل ان احزن على حياتي معك، فالذي لا يحس بالآخرين وبعواطفهم تجاهه، لا شيء في العالم قادر على إعطائه ذلك. رنت في أذنه بقية كلامها، عبارات قاسية ومرة وفيها حقيقة كبيرة، حدق بالسقف وابتسم لشيء في نفسه، صدى حب في روحه وقلبه وذاكرته.

**

-21-

نهاية طنطورية

انا اريد الحياة.

تصلبت شراينها، وشدت معدتها تقلصات شديدة وقاسية، صرخت من الم في بطنها:
(أ خ)

لا اريد الموت، انا اريد الحياة.

رأت صورة امها، امها سميرة صبحي التي لم ترى خيالها ولا مرة واحد، تمتت كثيرا ان تراها في احلامها لكنها كانت عاجزة عن رويتها.

ابستمت لها، لكنها كانت عاتبة.

ازداد الالم، شعرت بالموت يقترب سمعت امها تقول لها:

-انه خيارك.

- انا لا اريد الموت، اريد الحياة يا امي،

-انه خيارك او ليس خيارك.

- ليس خيارى يا امي.. انا طنطورية

- الموت ليس خيارنا، كل طنطوري لا بد مقتول.

تحركت قدماها وشدت بيديها على عنقها الجميل، تشعر بالاختناق والحاجة لان

تستنشق الهواء، وان تشرب قطرة ماء.

في ليلة حنائي كان يوم خميس، نتزوج دائما في يوم جمعة، في تلك الليلة كان عدد

قليل من نساء الحارة يغنين لي، كانت جدتي ماتزال على قيد الحياة، توفيت بعد

زواجى بقليل، لااذكر انها عاشت اكثر من اشهر بعد زواجى.

كانت من ضمن النساء الموجودات ام احمد، كانت الانسان الوحيد الذي لم

يفارقنا في بيتنا هي ام احمد، اجدها دائما عند جدتي تخفف عنها تأخري اوغيابي

وعدم عودتي.

كانت ام احمد خصبة الولادة حملت باكثر من عشرين بطنا كما كانت تقول بقى

على قيد الحياة منهم عشرة ذكور وخمسة اناث.

قتل ثلاثة من اولادها في المعارك التي كانت دائرة في القدس بعد هزيمة

الجيوش العربية. وقتل اثنان منهم في بيروت وبقي لها كما كانت تقول خمسة رجال

وفتاتين تزوجت احدهما في المخيم لابن عمها والاخرى تزوجت في مدينة الزرقاء.

كان الحزن ظاهراً على وجهها وكانت تقول:
يعتقدون ان المرأة الفلسطينية لا تبكي، ويدعون انها تستقبل ابنها الشهيد بالزغاريد
فرحاً، ربما تكون فرحة بشهادة ابنها لكنها تبكي وتبكي كثيراً ، الرسول صلى الله عليه
وسلم بكى ابنه ابراهيم.
وكانت تقول:

- المرأة الفلسطينية بحر من الدموع .تبكي كلما استشهد فتى فلسطيني وتبكي
عندما تتسلم كرت الاعاشة وبطاقة اللاجئين.

كانت ام احمد تشارك في الاعتصامات والمظاهرات التي تجوب المخيم وتقول:
- نحن لسنا اقل حظاً من الرجال. فلسطين ارضنا كما هي ارض ووطن الرجال.

يوم مات جمال عبد الناصر بكت ام احمد وقالت:
مسكين ظل يصرخ في العالم يريد النصر حتى ضاعت سيئاته.

وقتها قالت امي:

هو باعها او ضيعها.

قالت ام احمد:

لم يكن بيده شيء.

قالت جدتي:

كان بطلاً وقائداً فذاً.

قالت امي التي تكره الجميع:

لم يكن بطلاً، كان كغيره يتاجر بالشعوب.

قالت ام احمد:

كانت مصر والعرب يحبونه ، الم تسمعوا ان مصر كلها خرجت وراء جنازته، والشعوب
العربية كلها بكته.

قالت امي:

نحن شعوب عاطفية نبكي الجلاذ والقاتل ونقول لا تجوز على الميت الا الرحمة.

لكن مصر احبته وهذا دليل على اخلاص الحاكم لشعبه.

قالت امي :

كان في الزمن الاخير للفراعنة فرعون يسمى (انفسيس) وكان لهذا الفرعون طبيب

خاص يسمى سفوحي وكان في وقته كبير الأطباء في مصر في عهد ذلك الفرعون.

وقال هذا الطبيب في مذكرات اخفاها وظلت في الخفاء :

(انه كان في أحد الأيام متجولاً في بعض الشوارع المصرية فاذا هو يشاهد جثة من

الجثث قطعت أوصالها قطعت يداها ورجلاها وما من موضع الا فيها أثر من اثار العذاب

وهي كأنما تتنفس آخر أنفاسها فأخذ هذه الجثة الى بيت المرضى وحاول علاجها

وكان صاحب الجثة في غيبوبة وأفاق بعد شهرين من العلاج المستمر وصاحب الجثة

كان رجلاً يسمى (داخنا تون) وهو رجل كان معروف حسب الأعراف في ذلك الوقت في

المجتمع المصري نبيل، ومعروف عنه سعة ماله ومعروف بكثرة رخائه كانت عنده

أسباب الراحة وكان عنده الكثير الكثير من الأموال فلما أفاق الرجل من غيبوبته طرح

عليه طبيبة الذي عني به تلك العناية البالغة سؤالا:

ما الذي حل بك؟

فأجابته بأن الحاكم الذي هو (انفسيس) طلبه الى قصره وامره ان يتخلى عن كل ما

يملك من مزارع ومساكن وعبيد وجواري وكنوز ولا يتمسك بشيء عن ذلك فسلم اليه

الأمر ولكنه طلب منه ان يسمح له ببعض ما يملك من خزائن الذهب والفضة فما كان

من ذلك الحاكم القاسي الغليظ القلب الا أن أمر به فقطت أوصاله وأنزل به من العذاب ما أنزل ثم رمي بعد ذلك في الطريق بهذه الحال وهو عار من جميع ملبسه وظل هذا الرجل وهو يعاني من الحرمان والمرض والفقر والعناء والذل مدة تزيد عن عقد من السنين وكل امنيته ان يأتي اليوم الذي ينزل بهذا الفرعون القاسي العذاب ليتشفى منه ويبرد قلبه.

و شاء الله سبحانه وتعالى أن يموت ذلك الفرعون بعد عشر سنوات أو ما يزيد عن ذلك. ولما بدأت مراسم الدفن كانت أصوات الكهنة تنطلق بتمجيد ذلك الفرعون وكان مما يقولونه:

(أيها الشعب المصري أنكم فقدتم آلهما وأبر الآله وأرحمهم بعباده والطفهم بهم فقد كان للشعب المصري أبا حنونا وكان لطيفا بالفقراء والمساكين والمحرومين) واخذوا يعدون الاوصاف التي يلبسونها اياه كعادتنا بمجرد الافتراء او بمجرد حب تموية الحقيقة ويكيلون الثناء كيلا).

يقول الطبيب:

(فقد كنت محتارا من هذا الأمر كيف يمدح هذا الطاغية هذا المدح وكيف يكال له هذا الثناء وكيف يظهر بهذه الصورة وكيف تموت الحقيقة على هذه الجماهير فكانت الجماهير تبكي بكاء مرا، بسبب فقدتها من يعتقدون انه الألوهية وتعتقد فيه الرحمة والرفق واللفظ مع كون هذه الجماهير تعلم ظلمه وبطشه.) وقال ذلك الحكيم:

بينما كانت الأصوات (أصوات البكاء) تتعالى اذا بي أسمع صوتا يبكي هو ذلك المحروم الذي نكب بتلكم النكبة وتلكم الرزية التي لاتقدر بقدر ووجد اخناتون مشدودا بالحبال وهو على حالته تلك ويبكيء بكاء امرا على ذلك الطاغية الذي ظلمه في نفسه و في ماله، فظن هذا الطبيب أن ذلك البكاء كان بسبب الفرحة بما أصاب ذلك الطاغية فاقترب منه يهدئه ولكن الأمر كان بخلاف ذلك فوجئ وهو يقول له: (ياسفوحى ما كنت أحسب أن أنفسيس بهذه الرحمة والبر والأحسان على عباده حتى سمعت من الكهنة ما سمعت من وصفي.)

فيقول:

(عجبت من ذلك فنظرت الى جثته وما من موضع اصبع فيها الا وهو مصاب فعلم أني محتار من أمره فقال لي:

يا سفوحى لقد كان انفسيس على حق عند ما فعل وما فعل ذلك الا لأنى عصيت أوامر الاله وأنه لجدير لمن عصى أوامر الإله وان يصبه أكثر مما يصيني فقد كان من سعادتى ان يكون عقابى على يديه فان من سعادة العبد أن يكون عقابه على يدي إله.)

قالت ام احمد :

لكنه ارحم من الفراعنة.

قالت امي:

كلهم فراعنة، انهم يذبحوننا وندعوا لهم فوق المنابر بطول العمر والنصر، النصر على من وكل جيوشهم هزمت خلال ساعات.

ام احمد عمرت اكثر من الفرعون نفسه وكانت تقول لو استطيع الحمل والولادة لخلفت اطفالا قد يكونوا يوما من الايام من رجال التحرير.

قلت مرة لام احمد وكنت طفلة لا تعرف بعد معنى اللجوء:

لماذا لا يكون لنا بيوت كغيرنا من الناس ونظل نسكن في هذا الصفيح ؟

قالت ام احمد وقد وضعت يدها على رأسي:
نحن لا نملك بيوتنا يا ابنتي لاننا لا نملك وطننا.
ولماذا لا نشترى بيتا او ارضا؟
لاننا لا نريد ان نبيع وطننا.
كيف يا خالتي ام احمد؟
نحن نملك بيتا في فلسطين ولا نريد بيتا غيره.
قالت لها جدتي:

رجاء ليست صغيرة وهي تعرف انها لاجئة .
ام احمد بكت كثيرا عندما رفضت ان اتزوج قريبا الذي ابعدته اسرائيل من اراضه. كان
يحبني جدا عمل في المخبز القريب من بيتنا وكان مفتون بي.
قالت لي: انه يحبك ويريدك زوجه.
لا اريد ان اتزوج يا خالتي ام احمد
لكنه رجل ويأكل خبزه من عرق جبينه.
رفضت ان اتزوج قريبا ليس زهدا بالزواج، كنت اكثر انسان يحتاج الى الاسرة، لكنه
حسام القرد الذي احبته منذ كنت متسولة امام المسجد الحسيني ، تسولت حبه
واوقفت قلبي وجسدي له وحده.
**

- 22 -

طلاق

اردت ان اغني وارقص وافرح، لكني لم اجد احد افرح معه.
خطر ببالي المخيم، منذ زمن بعيد لم ازره، كنت نسيت اني فلسطينية او اني
طنطورية وقت كنت اخدع نفسي اني امرأة متزوجة من صحفي.
كنت اخدع قلبي وعقلي واضحك على نفسي، كن اظن ان الدنيا قد تغير حياتي
في لحظة ما وأصبح امرأة تحلم بزوجها يحبها.
لكني كنت فاشلة ومخدوعة بنفسي، متسولة.
عندما وافق، وكان وافق بسهولة، على طلاقي شعرت اني تخلصت من رجاء
المتسولة وعدت، ابنة سميرة صبحي الفتاة الطنطورية الفلسطينية.
لذلك اول ما تبادر لذهني وخطر ببالي المكان الذي اريد ان ابداء فيه حياتي الجديدة هو
المخيم.

طرقت منزل الخالة ام احمد، فخرجت تجر ثوبها خلفها، لم تزل بقوتها التي
عرفتها، كانها تريد الان ان تحبل وتلد من جديد، رايتها بقوتها ومحبتها، امرأة فلسطينية
تحلم بوطن لها ولابنائها.
اخذتني بحضنها وبكت.
لكني لم ابك، لا اعرف لماذا تجمدت الدمعات في محاجر عيوني ولماذا بكت خالتي ام
احمد؟

قالت لي وهي تراني احاول البكاء:

- عدت الينا كما ذهبت!

وقتها بكيت، بكيت كثيرا.

ادخلتني لبيتها وسمعتني كثيرا، كانت ماهرة في التخفيف عن المصابين، وتفهم لغة
العيون والقلوب دون ان ينطق اللسان.
قالت وهي تمسح دمعتي:

- حسام قرد المخيم، لن يتغير سيظل قرد المخيم.
- احبته يا خالتي، احبته اكثر من امي سميرة صبحي.
- لا يستحق محبتك.
- قتلني حسام قبل اواني .
- لا تبكي يا ابنتي الفلسطينية لا تبكي الا على شهيدها.
- جاء اغلب اهل الشارع الذي نسكنه، جاءوا مسلمين ومواسين، فنحن في المخيم لا يوجد من يواسينا الا نحن. فكل فلسطيني لفلسطيني قريب.
- جاء رجال ونساء، وجاء بائع الذرة، رأيت في عينيه كلام بغيض، حاول الانفراد بي ليقول لي شيئا لكن خالتي ام احمد عرفت مقصده فلم تتركنا طرفة عين.
- وجاء الخباز قريب خالتي ام احمد الذي كان خطبني قبل ان اتزوج من حسام القرد.
- كانت نظراته تكشف عن قلبه عرفت خالتي ام احمد ان في فمه كلام، ارادت الخروج لكنه استبقاها وقال:
- لا تخرجي يا ام احمد، اريد الكلام بحضرتك.
- قالت ام احمد وهي تعلم ما يريد:
- قل يا بني فانا استمع لك.
- انا اعلم ان الوقت غير مناسب لكني اريد ان تفهمي من كلامي حقيقة محبتي لك.
- صمت ، واشعل سيجارته واطاف:
- كنت ارغب بك زوجه على سنة الله ورسوله وما زلت ارغب بذلك وعلى سنة الله ورسوله.
- قالت ام احمد:
- عليه الصلاة والسلام، لكنها اليوم تطلقت وتحتاج الى وقت العدة.
- لا اريد ان اتزوج اليوم، اريد ان اطمئن ان اهلها موجودين معها في هذا الظرف.
- قالت ام احمد:
- وزوجتك وأطفالك؟! -
- سأعدل بي الأسرتين وانصف.
- ضحكت في سري ولعنت اللحظة التي عرفت فيها حسام، قرد المخيم.
- شكرتهم على هذه المحبة وهذا الاهتمام.
- لكني طنطورية، وانا لم اتي الى الخالة ام احمد بحثا عن الزواج والأمان، لم ات اليها لكي ابك، جئت لافرح وبسبب استقبالها الباكي جعلتني اعيش فكرة انني امرأة مطلقة.
- سهرت مع الخالة ام احمد حتى اذان الفجر، تحدثنا عن كل شيء، حدثتني عن علاقة الحب التي ربطتها بزوجها ابو احمد، الذي ترك لها حملا ثقيلًا، قالت:
- كنت التقى مع ابو احمد خلسة عن الجميع، كانت المرة الاولى نلتقي فيها تحت شجرة برتقال في بيارتنا، لم استطع ان احصي دقائق قلبي وكنت اسمع دقائق قلبه.
- وعندما مات ابو احمد تمنى لو يموت تحت شجرة برتقال، بكى كثيرا على البياة والارض وقال لي والدموع تملأ عينيه:
- ليت الموت سهلا بعيدا عن البرتقال.
- اعتقدت انه يخاف الموت، فهم ما يدور في رأسي، كان عشيقتي حتى الموت ويفهم كل نبضات قلبي.
- انا لا اخاف الموت يا ام احمد ، وانت تعرفين كم مرة حاولت الموت عندما كنت اشارك في العمليات الفدائية.

ومات ابو احمد وفي قلبه غصة.
تحركت ام احمد باتجاه النافذة، فتحتها واطلت برأسها، ارتفع نظرها صوت السماء
المليئة بالنجوم، حدقت في نجمة عالية، ظلت تحديق بالنجمة وقالت دون ان تحرك
رأسها:
كل نجمة في السماء هي ابو احمد، كان يقول برتقال فلسطين يتحول الى نجوم في
السماء.
شعرت بالدفيء والحنان، اول مرة اشعر فيها بالمحبة، تسلل الدفيء الى قلبي، عمر
صدري وكل جسمي من اعلى رأسي الى اسفل قدمي، تحرك خدر لذيذ مع كلمات
ام احمد وامتلاء به كياني.
اغلقت ام احمد النافذة وقالت:
كانت السماء صافية، وكان قرص الشمس جميلا، وكانت الطبيعة حلوة وفلسطين
تعيش اجمل ايامها، جلسنا ذات يوم تحت شجرة البرتقال التي كانت مثقلة باحمالها،
تأت برائحة عطرة ما زالت تحثني حتى هذه اللحظة على الحبل والولادة والحبل حتى
اموت.
كان ابو احمد رحمة الله عليه، شاب يمتليء نشاطا وحيوية، عيناه واسعتان كبرتالة
وقلبه يتس لكل الدنيا اخضر كشجر الزيتون.
جلسنا كان ظهري يلتصق بجذع شجرة البرتقال وعيوني تعبت مع اصابعي بالتراب
الندي، كنت من شدة خجلي لا ارفع رأسي في وجه ابي احمد، وكان صدره يعلو
ويخفق من شدة حبه وخجل.
نهض ابو احمد فجأة وقطف حبة برتقال ناضجة وقدمها لي وقال:
-هل تقبلي ان تكون هذه البرتقالة مهرك؟
ضحكت وقلت:
اريدها مقشرة كي اكلها.
ضم شفثيه وعبس، ثم ضحك وقال:
جففيها وابقيها للذكرة وسأطعمك العشرات غيرها.
دخلت ام احمد غرفتها وعادت تحمل بيدها برتقالة مجففة وقالت:
هذه البرتقالة كانت مهري.
سألتها:
كان يحبك؟
كان يعشقني.
لماذا امي لم تكن تحب ابي؟!
بعد مذبحه الطنطورة كرهت امك كل شيء .
هل سمعتي عن المذبحة؟
نعم، مذابح شعبنا متواصلة، اخبرنا احد الناجين من المذبحة انهم قتلوا ابناء عائلته
واصدقاءه امام عينيه، كانوا يقتلونهم عشرة عشرة ويرمونهم في حفر كبيرة قام
بحفرها القتلى بانفسهم.
وقال انهم ملاءوا بئرين بحث الشباب والفتيات، كانوا يقتلون السكان كنوع من
التسلية.
قلت لام احمد:
قالت امي انهم طردوهم الى قرية الفريديس وانهم باتوا فيالعراء دون غطاء.

وقالت امي: حتى البيوت ما زالت تشهد اثار المجزرة فبيت احمد اليحيى ما زال الرصاص باديا فيه للعيان.

وقلت لخالتي ام احمد :

قرأت في احدى الصحف مقابلة مع احد الناجين من المجزرة، يقول ابو رياض عبد الرازق:

- (ان المناوشات الأولى، وأول معركة، كانت في الأيام العشرة الأخيرة من كانون الثاني (1948). وبدأت التحرشات من قبل سكان زميرين(وقد اشترها البارون وأقام عليها قرية زخرون يعقوب)، وقتل في تلك الفترة أحد ابناء القرية (محمود ابو مديرس). ويوم (15) ايار 1948 جاءت مصفحة واختطفت ثلاثة اشخاص عندما كانوا يصلحون سيارة باص تعطلت في الشارع الرئيسي. وهم سائق الباص أبو لوة ،وهو ليس من الطنطورة وكان معه يحيى ابو عبود ومرعي دسوقي)).

ويضيف:

- ((كنت شاهداً على المعركة، بعد الواحدة ليلاً بدأ الهجوم على القرية من كل الجهات. كان معنا بعض الاسلحة الشخصية الخفيفة، لكن ماذا نفعل مع هذه المصفحات. كنا نضرب فشك أحمر وهم يضربون قذائف من المصفحات. كان هناك "برن" على سطح المدرسة لكن رصاصه انتهى...وفي الصباح استسلمت القرية على امل أن تترك العصابات الاحياء ولا تدمر القرية. لكن الذي كان، أن جمعوا اهالي القرية في الساحة، أوقفوا جميع من بقي من القرية وأداروا وجوههم الى الحيطان وقتلوهم بدم بارد. انا كنت شاهداً على هذه الجريمة، قتلوا حوالي (95) شخصاً، وسجلت اسماء من ماتوا. أما من ظل حياً فقد أحضر اليهود سيارات شحن، وضعونا فيها وكبونا على الفريديس، ومن هناك انطلقت الهجرة الثانية الى سوريا ولبنان والأردن. وهناك مجموعة من الرجال أخذهم اليهود الى المعتقل، والكبار في السن اخذوهم الى طولكرم وسلموهم للجنة القومية، وجاء الصليب الأحمر واخذ النساء الى أزواجهن وتفرقوا في البلاد العربية. وهكذا دمرت القرية، وما بقي منها تحول الى كيبوتس اسمه "نحشوليم)).

وقال الحاج محمد عبد اللطيف (ابو أحمد):

- ((كنت صغيراً لم اتجاوز الرابعة عشر من عمري، لكن رأيت بأمر عيني الجثث الملقاة على الارض، لكنني لم أر من قتل، حيث كنت ممن جمعوا بين النساء كبقية الاولاد الذين جمعوا مع النساء الى ساحة عامة قرب المقام، والرجال اعتقلوا ونقلوا الى (زميرين) ثم الى معتقلات أخرى. لقد كان ترانسفيراً جماعياً وكان نصيب الاولاد والنساء الى قرية الفريديس، وأنا ممن كانوا مع النساء. وبقينا في قرية الفريديس بينما تركنا بيوتنا تخفق الرياح بأبوابها)).

وقال:

- ((يوم كانت الحرب كان الشباب يدافعون عن القرية. جاء الجنود من البر والبحر، فالشباب يقاومون على التل خلف خط سكة الحديد والجيش من ورائهم داخل القرية، فكانوا في حصار محكم وبعدها سقطت القرية وكان ما كان)).

ويضيف الحاج ابو احمد:

- ((لقد كنت صغيراً وتكاد ذاكرتي تخونني فهذه الصورة كما ترى لا يوجد فيها رجال فهي بعد المذبحة، وبعد نقل الرجال الى زميرين وأم خالد حيث المعتقلات)).

وقال الحاج عبد الرحمن دكناش(ابو فهمي):

- ((كان ذلك ليلة تسريحي من الجندية بعد خدمة عسكرية دامت ثمانى سنوات.هوجمت القرية ليلاً من جميع الجهات براً وبحراً،وكان معنا من الذخائر قليل القليل. أطلقت ثلاث رصاصات طلبت فيها النجدة من عين غزال فأجبت بالاسلكي إن الطريق مليئة بالدبابات ولا يمكن أن يصل مدد ،عندها ايقنا بوقوع الكارثة. وفعلاً سقطت القرية وجمع كثير من الرجال إلى الساحة ثم أديرت وجوههم إلى الحائط ورشوا جميعاً بالذخائر الحية،رأيت ذلك بأم عيني وأعطاني الضابط قلماً ودفتراً وحمالتين وطلب تسجيل أسماء أصحاب الجثث فكانوا (95)رجلا وامرأتين. هذا ما سجلناه لكني لم أسجل بعض الجثث كي لا ينكلوا بأفراد عائلاتهم وكان من بين الذين لم أسجلهم عمي وابنه)).
ويضيف أبو فهمي:

((كنا عدة شباب بيننا صديق لي أذكر اسمه (مرشد) كان يعمل عند اليهود في الكمبيوتر وكان يتعلم العبرية،فسمعناهم يقولون في التقرير الذي رفعه قائد الكتيبة وكان اسمه شمشون إلى مسؤولية إننا احتلينا منطقة استراتيجية وقد قتلنا حوالي (250) شخصاً،هذا ما ترجمه صديقي (مرشد). وبعد ذلك طلبوا منا ان نحفر قبراً كبيراً وعدة قبور صغيرة فقال لنا (مرشد) انهم يقولون انهم سيقتلونا جميعاً وان هذه قبورنا التي نحفرها بأيدينا.وفي هذه الاثناء جاء يهودي كان يعمل عنده مرشد فعرفه فقال له لا تخف سأذهب الى الضابط وارجع اليكم،فذهب ثم عاد بورقة افراج، لكنهم نقلونا الى المعتقلات وبقيت ثمانية عشر شهراً أنتقل بين السجون حتى نهاية الافراج عني)).
وقلت للخالة ام احمد قرأت مؤخرًا ان احدى النساء من قريتنا واسمها الحاجة فردوس ابو الهيجاء قدمت شهادة مماثلة عن ما قام به الجنود الصهاينة من اغتصاب للحرائر...تقول:

- ((كانت ساكنة بجنبنا ختيارة كبيرة أجت بعد ما انقلوا أهلها،وكنا نقعد حواليها وتحدثنا عن اللي صار.بنقول:كانوا بعد ما دخل الجيش يفصلوا الرجال عن النسوان.الشباب أخذوهم وقتلوا منهم كثير قدامنا ،طخ في روسهم يا بصدورهم... وجمعوا النسوان والصغار وصاروا ينقوا البنات والصبايا،بنات ال16 وفوق،ولموا فوق (30) بنت وحملوهن بسيارات الجيش ليأخذوهن ويتعدوا عليهن..وقامت كم مره(امرأة)كبيرة تحاول منعهم فمسك الجندي بلطه عن الأرض وضرب (امرأة) على رأسها فيها،فلق رأسها شقفتين،وما استجرى حد يحكي وضلوا رايعين بالبنات)).
بكت الخالة ام احمد للقصص التي حكيتها لها عن معاناة اهل الطنطورة وقالت:
كل نساء فلسطين طنطوريات وكل رجال فلسطين طنطوريون.
قلت لها :

قرأت في الكتاب المقدس الذي كان يملكه حسام سفر التثنية(24/11) كل مكان تدوسه بطون اقدمكم يكون لكن، من البرية ولبنان، من النهر، نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تخمكم.

وقرأت في سفر شعبا5/61 هكذا يقول الرب، ملك اسرائيل : يقف الاجانب ويرعون غتنكم ويكون بنوا الغريب حراثيكم اما انتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الامم وعلى مجدهم تتأمرون.

وقرأت في الكتاب المقدس سفر تثنية 16،20 : واما مدن هؤلاء الشعوب، التي يعطيك الرب نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرقها تحريقا.
وقرأة في الكتاب المقدس سفر صموئيل الاول: ولا تعف عنه بل اقتل رجلا وامرأة، طفلا ورضيعا بقرا وعنما، جملا وحمارا.

مدت ام احمد رجليها ووضعت على قدميها سجادة الصلاة وقالت:
لكن لماذا الطلاق، تصوري نسيت ان اسألك.

انا طلبته وهو لم يتردد.

الم تكونا على وفاق؟

كان يحب بنت المقبرة، وانا اجبرته على الزواج مني، كنت اظنه سيتغير.

من هي بنت المقبرة؟

فتاة من مخيم غير مخيمنا، تعرفنا عليها منذ ان كنا صغارا، عرفته قبله جاءتني تكاد

تموت جوعا وعطشا وخوفا، كانت تسكن المقبرة قبل ان تعود الى اهلها.

تسكن المقبرة؟!

لا احد يعرف قصتها، عاشت معنا فترة اشهر وبعدها غادرت الى اقاربها في المخيم،

كان حسام يحبها منذ ان كان طفلا يمسح الاحذية.

وهل كانت تحبه؟

لا، لم تكن تحبه، تركته دون وداع وظل هو مولعا بها.

حتى بعد ان تزوجتما؟

لم ينساها ابدا. كان رسم لها لوحة فنية فازت بجائزة كبيرة والتقط لها صورة فوتغرافية

ويحملها معه اينما ذهب.

-الم تعرف بزواجكما.

- لم اراها منذ ان غادرتنا. عندما جاءت تودعنا سرنا معا في سوق السكر الى شارع

الرضا وشارع السعادة وعدنا الى المسجد، بكينا كثيرا على الوداع وطلبت مني ان ابلغ

تحياتها لحسام لكني لم افعل، كنت اعرف انه يحبها فلم افعل، كنت اغار عليه حتى

من الصورة.

**

-23-

المقبرة

تسلل جسدها الذي فر منها في العتمة، عتمة غرفة نومها التي لم تفرح يوما بها

كزوجة، عرفت ان يدها تمسك بقبضة باب غرفة نومها، لكنها غير قادرة على ان

تسيطر على حركة أصابعها، أحست برائحة الشارع الخالي من المارة والمضاء بإنارة لا

تكاد تبين، شعرت بأنها تريد ان تشم رائحة الشارع الحادة المحملة بغبار لزج.. ووجدت

أن عينيها قادرتان على استكشاف الشارع تماما رغم أن عتمة رمادية كانت تتساقط

فوق المدينة المصابة بسكون كالموت.

وجدت روحها تمشي وحيدة بدون جسدها في شوارع المدينة.

فكرت بزيارة قبر والدها او قبر والدتها. تحركت روحها بخفة الى المقبرة، مقبرة المخيم،

كانت بوابة المقبرة مفتوحة.

بسملت بخوف، رفعت صوتها وقرأت قرآنا بصوت عال.. كانت الشواهد كثيرة، لنساء

المخيم ورجالها واطفالها، مقبرة المخيم كانت اخر الاحلام، لم يكن احد منهم يريد

الموت بعيدا عن ارضه لكنه مات ودفن في مكان خال من أي شيء.

تعلو القبور اتربه كثيرة واشواك قتلها نقص المياه، تتمايل شواهد القبور وتتلون بسواد

كثيف، بحثت عن قبر أبيها ..هي لا تعرفه، لم تزره في حياتها. بكت. بكت بحسرة كيف

كل هذه السنين لم تعرف اين قبر والدها المسكين.

ذهبت الى قبر والدتها وضعت رأسها على ترابه وبكت، أمي ها أنا أجيء إليك راغبة

هاربة من الحقد الذي لم افهمه. من الموت الى الموت.

انا يا امي لم اكن اعني كلامك عندما قلت لي ان الحب يقتل صاحبه.
لكني يا امي فهمت اني طنطورية وكل طنطوري لا بد مقتول.
يا امي القبور تزداد كل يوم ولا تنقص، والمقابر يا امي تتوسع على حساب
الاحياء، ولا يضير المقبرة لو زادت اليوم قبرا واحدا.
شعرت بخيال امها يجذبها الى حضنها، لم تشعر يوما من قبل ان لامها سميرة
صبحي حزن وقلب دافيء كبقية الامهات.
لا تذكر رجاء انها في يوم من الايام ضمتها امها الى صدرها بحنان ومحبة. كانت سميرة
صبحي تعتقد ان الحنان الزائد يفسد الطفل.
لكني يا امي طفل يحتاج الى حزن امه.
فتحت سميرة صبحي ذراعها وابتسمت لها تدعوها الى صدرها،
سمعت امها تهمس في اذنها وهي تحضنها:
- جئت الى مكانك يا ابنتي.
- امي ..
- عدت الي يا ابنتي، كنت خائفة عليك من الدنيا، كنت خائفة عليك.
- امي، اين قبر ابي؟
تصمت
انقطع همس امها قليلا ثم عاد من جديد:
- لم اجد من يرشدني اليه ليسامحني.
شعرت بجسدها المغادر لروحها منذ فترة يعود اليها. تجولت بين القبور تبحث عن قبر
ابيها لكنها ظلت تبحث دون ان تجده.
انتهت
الرمثا الساعة العاشرة والنصف من ليل الاثنين 12 كانون الثاني عام 2004